النفس البشرية والنظريات المختلفة

دكتور فرج عبد القادر طه

أستاذ ورئيس قسم علم النفس بكلية
الآداب ـ جامعة عين شمس

تشريح النفس البشرية

كلمة « نفس Psyche » تعتبر من المفاهيم العلمية والفلسفية واللغوية ، التى تتناولها المعاجم المختلفة بالتعريف والشرح والتفسير ، سواء كانت معاجم لغوية أو فلسفية أو علمية .. إلا أن تعقد النفس وغموضها كظاهرة ينعكس على هذه التعاريف حتى ليصعب أن يصل أى منها إلى تعريف دقيق واضح ، تصدق عليه صفة التعريف الجامع المانع التى ترضى غرور العالم ، وتشبع رغبة الطالب .. ومع ذلك فإن كلاً منا يكاد يعرف بحدسه الخاص مقصود كلمة « نفس » ، بمثل مايستطيع كل منا أن يعرف المقصود بكلمة « ماء » بينما يصعب عليه تعريفه .

وفى الكتابة عن النفس البشرية يجب أن نمهد بتعريف لها مهما بدا قاصرا ، حتى تكون بيننا وبين القارىء أرضية محددة يدور حولها بحثنا ، ولغة مشتركة نتفاهم عن طريقها .

وفيما يورده لسان العرب لابن منظور (١٢٣٢ ـ ١٣١١) فى تعريف النفس : « ... النفس الروح ، والنفس مايكون به التمييز .. والعرب قد تجعل النفس التى يكون بها التمييز نفسين ، وذلك أن النفس قد تأمره بالشىء وتنهى عنه ، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه فجعلوا التى تأمره نفسا ، وجعلوا التى تنهاه كأنها نفس أخرى .. والنفس يعبر بها عن الإنسان جميعه كقوله : « عندى ثلاثة أنفس » وكقوله تعالى : « أن تقول نفس ياحسرتىٰ على مافرطت فى جنب الله ... » . كما يذكر ابن منظور فى المقام نفسه قول أبى إسحق : « إن هناك معنى آخر للنفس تقصده العرب هو جملة الشىء وحقيقته » .

وفى محيط المحيط للبستانى عند تناوله لتعريف النفس : « ... ويراد بالنفس الشخص والإنسان بجملته ... والنفس مؤنث إن أريد بها الروح نحو : « خلقكم من نفس واحدة » ، وإن أريد الشخص فمذكر يقال : « عندى خمسة عشر نفسا ...

ويقال : فلان يؤامر نفسيه ويشاورهما إذا تردد فى الأمر واتجه له رأيان وداعيان لايدرى على أيهما يعرج ويثبت ، وعليه قول حاتم الطائى :

« أشاور نفس الجود حتى تطيعنى ... وأترك نفس البخل لا أستشيرها » .

وتورد معاجم اللغة الإنجليزية شيئا قريبا من هذا .. فعند تعرض قاموس كولير Collier's Dictionary لكلمة Psyche يشير إلى تضمنها لمعنى روح الإنسان أو عقله كطاقة تحرك النشاط والوظائف النفسية المختلفة .. وفى قاموس الفلسفة الذى أشرف على تأليفه روزنتال ويودين Rosenthal & Yudin أن النفس كفكرة مبسطة تعبر عن عالم الإنسان الشخصى القابل للملاحظة الذاتية .. أى عن أحاسيسه ومدركاته وأفكاره ومشاعره .... الخ ، وأن المفهوم الفلسفى للنفس يقابل مفاهيم الوعى والتفكير والمعرفة والعقل والفكر والروح ...الخ .

أما دريفر Drever فيعرف النفس فى قاموسه عن علم النفس بقوله « فى أصلها مبدأ الحياة ، لكنها تستخدم بشكل عام على أنها تعادل العقلية أو كمقابل للعقل أو للروح » .. ويبرز إنجلش وإنجلش English & English فى قاموسهما الشامل لعلم النفس والتحليل النفسى فكرة أن النفس هى التى تنجز الوظائف النفسية أو تقوم بالأنشطة النفسية ، ويعرفان علم النفس Psychology بأنه : « فرع من العلم يختص بالسلوك أو النشاط أو العمليات العقلية ، وأيضا بالعقل أو النفس أو الشخص الذى يقوم بالسلوك أو يؤدى النشاط أو ينجز العملية العقلية ... » .

ولاينبغى لنا أن نسترسل أكثر من ذلك فى محاولتنا تعريف النفس ، فلقد تبين أن تعريفات النفس مهما اختلفت مصادرها فهى تتفق فى روح التعريف وجوهره أو تكاد ، وأن الخلاف يغلب أن يكون فى استخدام الألفاظ ، أو فى التركيز على جانب من النفس دون الآخر ، أو فى تفضيل وجهة نظر فى النفس البشرية أو فى وظائفها على الأخرى .. يصدق هذا سواء فى التعريفات التى يقدمها اللغويون العرب وغيرهم أو يقدمها علماء النفس ومتخصصوه .. وقد كان هذا سببا وراء الاتفاق الكبير الذى نجده بين العلماء على الموضوعات والظواهر التى تقع فى نطاق علم النفس ، وفى مجال اهتمامه .

ويجدر بنا أن نضع لأنفسنا تعريفا للنفس يكون أكثر بساطة وأشد وضوحا وأوسع شمولا نرتضيه معا ، لتحديد الميدان الذى يصحبنا فيه هذا الكتاب مرتحلا داخل النفس البشرية .. هذا التعريف هو :

النفس هى جوهر الإنسان ، ومحرك أوجه نشاطه المختلفة إدراكية أو حركية ... أو فكرية أو انفعالية أو أخلاقية ... سواء كان ذلك على مستوى الواقع أو مستوى الوهم .. والنفس هى الجزء المقابل للبدن فى تفاعلهما وتبادلهما التأثير المستمر والتأثر مكونين معا وحدة متميزة نطلق عليها لفظ « شخصية » تميز الفرد عن غيره من الناس .

مكونات النفس البشرية

النفس البشرية وفق تعريفنا السابق لها ، تعتبر شيئا شديد التعقيد ، مما يسبب صعوبة فى فهمها حتى على المتخصصين .. وفى حديثنا اليومى نكرر مثل هذه العبارات : « عاشرت فلانا سنوات كثيرة ومع ذلك لم أستطع فهم نفسيته ، وخدعت فيه طوال هذه السنين ، والآن ظهر على حقيقته » . و « تصورت فلانا ذكيا لكن تبينت حقيقة غبائه » . و « توهمت فى فلان الصدق والأمانة فإذا بى اكتشفت مؤخرا كذبه وخداعه وخيانته » . و «كان إحساسى دائما بأن فلانا سليم النفس فإذا به أخيرا يكشف عن مرضه النفسى وتعقيده » .. وغير ذلك الكثير ، نسمعه من المثقفين والعامة على السواء ، مما يؤكد صعوبة فهم النفس البشرية لشدة تعقيدها .. فإذا كانت أجهزة البدن على هذا النحو من التعقيد الذى يقر به الأطباء وعلماء التشريح والفسيولوجيا ، فلماذا لاتكون أجهزة النفس على هذا المستوى من التعقيد .. بل ربما زادت عليه بحكم كونها ليست مادية مرئية ملموسة واضحة الملامح والتكوين والوظائف كالأجهزة الجسمية .

لكن ما مكونات النفس البشرية ؟

لعل من أبرز مكوناتها وأشدها خطرا فى الشخصية وأقواها وضوحا وتأثيرا : **الذكاء والقدرات الخاصة والدوافع النفسية وأساليب التوافق والصحة النفسية** .. وسنتناول كلا منها فيما يلى حسب مايسمح به المجال :

أولا : الذكاء :

نعنى بذكاء الشخص إمكانياته العقلية العامة التى تكمن وراء جوانب نشاطه العقلى المختلفة ، وتؤثره فى كل منها بدرجات متفاوتة ، ويتضح ذكاء الفرد أكثر **مايمكن فيما يلى : -**

(١) حدة الفهم وسرعته ودقته وصوابه .
(٢) القدرة على التعلم ، والتحصيل الدراسى فى المدرسة أو الجامعة .
(٣) القدرة على معالجة المواقف الجديدة التى تتعرض لها الشخصية بمهارة ونجاح .
(٤) القدرة على إدراك العلاقات المجردة بين الأشياء أو الموضوعات أو الظروف المختلفة .
(٥) القدرة على التعامل بالرموز والمجردات .
(٦) القدرة على الاستفادة من الخبرات الماضية فى مواجهة المواقف والظروف والمشكلات الحالية والتعامل معها .
(٧) القدرة على إنجاز أعمال وواجبات تتميز بالتعقيد والصعوبة .
(٨) القدرة على الإبداع والابتكار والأصالة أثناء قيام الفرد بأوجه نشاطه المختلفة .

ويستمتع كل فرد منا بدرجة ما من الذكاء كبرت أم صغرت ، فكما أن لكل منا طولا معينا ووزنا معينا فإن له أيضا ذكاء معينا ، فلا يوجد فرد معدوم الذكاء ، وحتى ضعاف العقول لهم ذكاء ولكن بدرجات منخفضة ، وتكون نسبة الذكاء متوسطة عندما

تقارب الـ ١٠٠ ، وكلما زادت عن ذلك كان الفرد أكثر ذكاء ، وكلما قلت كان الفرد أقل ذكاء .. ويعتبر ذكاء الفرد قليلا عادة لتأثره بالظروف البيئية ، ومع أن ذكاء الفرد ينمو فى مراحل طفولته كما ينمو جسمه ، إلا أن نسبة ذكائه تظل ثابتة إلى حد كبير لأنها تحدد فى ضوء من هم فى مثل سنه .

وهناك العديد من الاختبارات الصالحة لقياس الذكاء-فى مجتمعاتنا المحلية أو المجتمعات الأجنبية ، والتى استوثق مؤلفوها أو معدوها عن طريق تجريبها وإجراء الدراسات الميدانية والإحصائية المختلفة عليها من صلاحيتها للاستخدام ، كل فى المجتمع الذى أعد خصيصا له وجرت تجربته عليه .

ومن المبادىء المعروفة فى القياس النفسى عموما أن الاختبار الصالح لقياس قدرة أو خاصية نفسية فى بيئة لايشترط بالضرورة صلاحيته لبيئة أخرى ، ومايصلح لمجتمع معين لايشترط بالضرورة صلاحيته لمجتمع آخر ، ولهذا فإن عملية ترجمة اختبار ذكاء تم لبيئة ومجتمع أجنبيين وإعداده حتى يصلح للبيئة المصرية ومجتمعها يعتبر أمرا صعبا صعوبة تأليف اختبار جديد ، حيث يتطلب الأمر أن تعاد عليه فى صورته المترجمة جميع أنواع الدراسات والتجارب التى أجراها عليه مؤلفه الأصلى ، وهذا أمر يستغرق الكثير من الجهد والوقت ، إلى جانب الكثير من الإمكانيات والنفقات ، ومن هنا كانت القلة النسبية لاختبارات الذكاء الصالحة للبيئة العربية .

ثانيا : القدرات الخاصة :

ويمكن أن نلحق بقدرات الفرد الخاصة خبراته الخاصة ومؤهلاته العلمية التى حصل عليها ومعلوماته التى اكتسبها خلال رحلة حياته ... وإذا كان الذكاء كقدرة أو استعداد عقلى عام يؤثر بدرجات متفاوتة فى كل أنواع الأنشطة العقلية ـ كما سبق أن أشرنا ـ فإن القدرات أو الاستعدادات الخاصة يؤثر كل منها فى نوع واحد من النشاط حسب نوعية القدرة أو الاستعداد .. ومن هنا كانت تسميتها بالقدرة الخاصة أو الاستعداد الخاص .. وهناك عدد كبير من القدرات أوالاستعدادات الخاصة المعروفة والتى من أهمها :

(أ) القدرة (أو الاستعداد) اللفظية :

ويقصد بها مدى قدرة الشخص (أو استعداده) على التعامل بالألفاظ فى استخدامها بكفاءة وطلاقة للتعبير عن المعانى والأفكار التى يريد أن يوصلها إلى غيره منطوقة أو مكتوبة ، وقدرته على فهمها بسرعة وبدقة ليستدل منها على المعانى والأفكار التى يسمعها من غيره أو يقرأونها عنه .. وواضح من هذا التعريف للقدرة اللفظية ضرورة توافرها بدرجة عالية للنجاح فى بعض الأعمال كالتدريس بصفة عامة وتدريس اللغات بصفة خاصة ، بينما لاتلزم فى أعمال أخرى كالأعمال الميكانيكية مثلا .. ويمكن أن نقسم هذه القدرة الخاصة إلى قدرات أكثر تخصصا ، مثل القدرة اللفظية العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية .. هذا ويشترط لصلاحية الاختبارات التى تقيسها مايشترط لاختبارات الذكاء من دراسات تجريبية وإحصائية .

(٢) القدرة (أو الاستعداد) : العددية :

ونعنى بها مدى قدرة الشخص (أو استعداده) على التعامل بالأرقام من حيث الدقة والسرعة والكفاءة فى هذا التعامل .. ولهذا فهى تشتمل على قدرة الفرد على القيام بالعمليات الحسابية البسيطة والمعقدة : جمع أو طرح أو ضرب أو قسمة ، وقدرته على اكتشاف العلاقات من الأرقام بعضها البعض .. ويتبين من هذا أن القدرة العددية يجب أن تتوافر بدرجة عالية حتى يمكن للشخص أن ينجح فى بعض الأعمال التى نحتاجها مثل : أعمال الحسابات والمراجعات وتدريس الرياضيات ، بينما لاتكاد تلزم لأعمال أخرى كتدريس اللغات مثلا .. ويصدق ماقلناه سابقا عن القدرة اللفظية على هذه القدرة العددية فيما يتعلق بإمكانية انقسامها إلى قدرات أكثر تخصصا ، وفيما يتعلق أيضا باختبارات قياسها .

(٣) القدرة (أو الاستعداد) الميكانيكية :

والمقصود بها هو مدى القدرة (أو الاستعداد) على معرفة كيفية فك الآلة إلى أجزائها المكونة لها ، وتركيب هذه الأجزاء معا لتكوين الآلة من جديد ، وفهم كيفية عملها والعلاقات الوظيفية بين مختلف أجزائها ، ومعرفة كيفية صيانتها ، ومكان العطل بها ، والقدرة على إصلاح أعطالها بدقة وسرعة .. وكما هو واضح من تعريف هذه القدرة الميكانيكية نجد أنه من اللازم توافرها بدرجة عالية فى الشخص حتى ينجح فى بعض المهن كما فى الأعمال الميكانيكية على اختلاف مستوياتها .. (من مستوى الصبى الذى يتدرب على العمل الميكانيكى إلى مستوى المخترع أو المصمم الذى يخترع الآلة أو يعدل فى تصميمها وكيفيات عملها ليكسبها إمكانية أعلى على العمل والإنتاج) .. بينما نجد أن هذه القدرة لاتكاد تلزم أعمالا أخرى كتدريس اللغات مثلاً .. ويصدق على هذه القدرة أيضا مايصدق على سابقتها من إمكانية انقسامها إلى قدرات أكثر تنوعا وتخصصا ، ومن توافر شروط صلاحية الاختبارات لقياسها .

(٤) القدرة (أو الاستعداد) الفنية :

يوجد عدد كبير من القدرات (أو الاستعدادات) الفنية .. يختص كل واحد منها بنوع من أنواع الأنشطة الفنية . فمنها ماهو خاص بالشعر ، أو بالأدب ، أو بالرسم ، أو بالنحت ، أو بالموسيقى ، أو بالغناء ، أو بالتمثيل ... الخ .. وتتعلق كل منها بقدرة الشخص على الإبداع فى النشاط الفنى المعين وعلى تذوقه فى نفس الوقت .. فالقدرة الموسيقية ـ على سبيل المثال ـ تتضمن مدى كفاءة الشخص فى تذوقه للموسيقى والحكم عليها والإنتاج المبدع فيها .. وكذا الأمر بالنسبة للرسم أو لغيره من الأنشطة الفنية الأخرى .. وقد نجد شخصا يجمع بين التفوق فى أكثر من نوع من أنواع القدرات الفنية ، كما نجد آخر لايتفوق إلا فى نوع واحد منها فقط ، وثالثا لايتفوق فى أى منها .. ومامن شك فى أن الطلبة الذين يريدون الالتحاق بأى من أقسام المعاهد الفنية المختلفة يلزم أن تتوافر لديهم القدرات أو الاستعدادات الفنية اللازمة لهذه الأقسام وتلك التخصصات بدرجات عالية .. فمثلا أقسام الرسم تتطلب

فى الطالب قدرة او استعدادا فنيا عاليا فى الرسم خاصة ، وأقسام النحت تتطلب قدرة أو استعداداً فنيا عاليا فى النحت بصفة خاصة ... وهكذا ... ولذلك فإن هذه المعاهد الفنية لاتكتفى بقبول طلبتها بناء على المجموع العام للدرجات التى يحصلون عليها فى الشهادات العامة ، بل تشترط أيضا ضرورة اجتياز الطلبة لاختبارات فى القدرات والاستعدادات الفنية الخاصة بهذه الأقسام ، التى تختلف بالضرورة من قسم لآخر حسب نوع النشاط الفنى الذى يختص به القسم .. هذا وتتطلب اختبارات القدرات والاستعدادات الفنية نفس الشروط الواجب توافرها فى الاختبار النفسى الصالح كما سبق أن أشرنا .

(٥) القدرة (أو الاستعداد) الإبداعية :

وتختص هذه القدرة بمدى الأصالة والجدية فى أفكار الشخص وفى حلوله للمواقف التى تجابهه ومختلف فروع إنتاجه بصفة عامة .. ولقد بدأت هذه القدرة تلقى اعترافا واهتماما متزايدا من جانب علماء النفس فى النصف الثانى من هذا القرن خاصة ، حيث ركز بعض الباحثين على دراستها كقدرة خاصة تقف جنبا إلى جنب مع بقية القدرات المعروفة .. والسبب فى اهتمام العلماء بهذه القدرة ودفعهم للاعتراف بها كقدرة مستقلة (بعد أن كان ينظر إليها على أنها مجرد عامل يكمن وراء القدرة الفنية) .. هو تزايد الاهتمام بضرورة اكتشاف ذوى المواهب العالية فى البحث العلمى وفى الهندسة وفى الإدارة ... وحيث بدأت تتكشف لهؤلاء العلماء الطبيعة الخاصة لهذه القدرة ، وكيف أنها ـ شأن بقية القدرات والاستعدادات ـ تكون موزعة بين الناس على نمط واحد بحيث يمتلك كل فرد نصيبا معينا منها وإن اختلف مقداره من فرد لآخر .. ومما يجدر ذكره أن الكثير من المرضى العقليين (والمجانين) لديهم أفكار ويقومون بأعمال تتميز بالجدية ، إلا أن أهم مايميز ذوى القدرة الإبداعية العالية عن هؤلاء المرضى (أو المجانين) .. هو أن الأصالة والجدية فى أفكار وأفعال ذوى القدرة الإبداعية العالية تساعدهم أكثر على التوافق مع بيئتهم والنجاح فى حياتهم وإسهامهم الإيجابى فى مجتمعاتهم ، بعكس الأمر عند هؤلاء المرضى (أو المجانين) .. وكغيرها من القدرات ، توجد أيضا اختبارات نفسية لقياس القدرة الإبداعية عند الأشخاص ، ويشترط لصلاحية استخدامها مراعاة شروط صلاحية الاختبار النفسى فيها .

(٦) الذاكرة :

تعتبر الذاكرة أو القدرة على التذكر من أهم القدرات العقلية وألزمها للنفس البشرية ، ونقصد بهذه القدرة إمكانية استيعاب ذاكرة الشخص للمعلومات والأفكار والخبرات والأحداث التى مرت به ، وإمكانية تذكرها واستعادتها إلى ذهنه واسترجاعها إلى عقله عندما يتطلب منه الموقف أو الظرف الذى يوجد فيه ذلك » . ولذا تعتبر ذاكرة الفرد إحدى قدراته الخاصة الأساسية ، إذ أن كفاءته فى كثير مما يقوم به من نشاط تعتمد إلى حد كبير على مدى قوة ذاكرته ، كالجغرافى والمؤرخ والصحفى والمعلم والسياسى والمشتغل بالقضايا الاجتماعية العامة .. وتتضح أهمية الذاكرة ودورها الكبير بجلاء فى التحصيل الدراسى للتلاميذ ، حيث إنهم فى حاجة ماسة ـ علاوة على فهمهم لدروسهم ـ إلى تذكر تفاصيلها وجزئياتها

واسترجاعها للاستفادة منها فى التحصيل الدراسى اللاحق ، أو فى الامتحان القادم ، أو فى القيام بالنشاط المهنى المنتظر .. ولشدة إحساس العامة بأهمية الذاكرة وتقديرهم لدورها فى حياة الفرد ونشاطه يساوون بينها وبين الذكاء ، ويصفون الشخص « بأن عنده ذاكرة قوية » فى حين يقصدون وصف ذكائه لا ذاكرته .. وكبعض القدرات الخاصة ، يمكن تقسيم الذاكرة كقدرة خاصة إلى قدرات عدة أكثر تخصصا ، كذاكرة الأسماء ، وذاكرة الأرقام ، وذاكرة الأفكار ، وذاكرة الأشكال والصور ، وذاكرة الألوان ، وذاكرة الأماكن ، والذاكرة القريبة ، والذاكرة البعيدة ....الخ . وهناك الاختبارات النفسية التى تقيس الذاكرة بأنواعها المختلفة ، والتى لابد من تحقق شروط صلاحية الاختبار النفسى فيها حتى يمكن لنا استخدامها باطمئنان وثقة .

(٧) القدرات الحسية :

تتمثل القدرات الحسية فى قدرات الشخص على أنواع الحس المختلفة مثل قدرة الإبصار ، وقدرة السمع ، وقدرة الشم ، وقدرة التذوق ، وقدرة الحس العضلى وقدرة الحس اللمسى ، وعلاوة على حاجة الشخص إلى هذه القدرات الحسية فى توافقه فى حياته العامة والخاصة .. نجد أن ارتفاع بعض هذه القدرات يعتبر ضروريا للشخص حتى ينجح فى عمله .. وتحتم معظم مجالات العمل ومؤسساته نجاح الشخص فى اجتياز اختبارات حسية معينة لتعيينه فى الوظائف الخاصة بها . وتعتبر القدرات الحسية هذه أدخل فى الجانب البدنى من الشخصية عنه فى الجانب النفسى .. ومن هنا فإن تشخيصها وعلاجها هو أساسا من اختصاص الأطباء البشريين ، الذين يبتكرون لكل منها الوسائل والاختبارات الصالحة لقياسها وتشخيصها واكتشاف جوانب العيب والقصور فيها ، ويحاولون بشتى الأساليب علاجها والتخفيف من قصورها ، وكثير من القدرات الحسية يمكن أن ينقسم بدوره إلى قدرات فرعية أكثر تخصصا ، فالقدرة البصرية مثلا يمكن أن تنقسم إلى : قدرة خاصة بالإبصار القريب ، وأخرى خاصة بالإبصار البعيد ، وثالثة خاصة بإبصار الألوان ...الخ .

(٨) القدرات (أو المهارات) الحركية :

وهى مجموعة من القدرات المتخصصة أو المهارات الخاصة بحركة أعضاء الجسم المختلفة ، ويقصد بها مهارة الحركة ، ودقتها وسرعتها وقوتها ، وتعتمد هذه القدرات على عدة عوامل متفاعلة متكاملة من أهمها: مستوى حيوية الفرد ، وجهازه العضلى والجسمى ، وخصائص جهازه العصبى وقدرات الفرد الحسية ، وخصائص بنائة النفسى ككل ، فهذه العوامل متفاعلة ومتكاملة تؤدى بالنشاط الحركى لأن يصبح صائبا أو طائشا ، سريعا أو بطيئا ، كما أنها تحدد مقدار كل ذلك .. ومن أمثلة القدرات والمهارات الحركة نجد منها : مهارة اليدين ، ومهارة الأصابع ، ومهارة الساقين ، والقدرة على العَدْو ...الخ .. وهناك الاختبارات النفسية والاختبارات الجسمية الخاصة بكل منها ، والصالحة لقياسه وفق المعايير اللازم توافرها لدقة القياس .

(٩) التآزر الحسى ـ الحركى :

ويقصد به مدى دقة الحركة وسرعتها وفق مايحسه الشخص ، ويتحدد نوع التآزر الحسى ـ الحركى بنوع الحس والحركة المتداخلين فى هذا التآزر .. فمثلا حركة اليد الواحدة أو اليدين فى تناسق مع ماتراه العينان تعرف بتآزر اليد والعين ، وحركة اليدين والقدمين على أساس ماتراه العينان تعرف بتآزر العين واليد والقدم ، وحركة اليد اليسرى فى تناسق مع ماتقوم به اليد اليمنى تسمى بالتآزر بين اليدين ، وتحريك اليدين والقدمين وفق مايسمعه الشخص من منبهات يسمى بالتآزر بين السمع واليد والقدم ، وهكذا ... ويلاحظ أن الأعمال الحركية تتطلب أنواعا مختلفة من التآزرات ، وبدرجات مختلفة أيضا .. فمثلا عمل السائق يتطلب أن يكون التآزر كبيرا من العين والسمع واليد والقدم ، ذلك أن يديه وقدميه كل منهما تقوم بحركات معينة متناسقة مع ماتراه عيناه وتسمعه أذناه ، وإلا تسبب فى حادثة ، أو اختلت قيادته لسيارته .. ومن الجدير بالذكر أن الحركة وثيقة الصلة بالإحساس ، بحيث إنها لاتتم إلا بتوصية من الحس .. كما أن العيب فى الجهاز الحسى يترتب عليه بالضرورة نقص فى صواب الحركة .. وبالمثل أيضا فإن العيب فى الجهاز الحركى يؤثر على صواب الحركة بالرغم من دقة الحس وكفاءته .. وتتوقف قدرة الشخص على التآزر الحسى ـ الحركى (علاوة على كل هذا) على مستوى حيوية الشخص ، وكفاءة جهازه العضلى والجسمى ، وخصائص جهازه العصبى وصفات بنائه النفسى .. (فعلى سبيل المثال فى حالة تخدير الجهاز العصبى يضطرب كل من الحس والحركة ويضطرب تبعا لهما التآزر الحسى ـ الحركى) .. ومن هنا فإننا نجد أن التآزر الحسى ـ الحركى يقع فى مرحلة متميعة بين الجانب البدنى أو الجسمى ، وبين الجانب النفسى من الشخصية ، فهو ليس نفسيا خالصا ، كما أنه ليس جسميا خالصا .. ولذلك نجد اهتماما مشتركا بالتآزر الحسى ـ الحركى بين الطبيب البشرى والإخصائى النفسى .. هذا ، وتوجد لمختلف أنواع التآزرات اختبارات نفسية وجسمية خاصة بكل منها وفق المعايير المطلوبة لصلاحية الاختبار ودقة القياس .

★★★

الجدير بالذكر ـ بعد أن انتهينا من الحديث عن الذكاء والقدرات الخاصة ـ أن نقرر أن الناس جميعا يتوافر لديهم الذكاء ، لكن بدرجات متفاوتة مابين شخص وآخر ، وأن الغالبية تمتلك الذكاء بدرجات متوسطة ، وأنه كلما ارتفعنا أكثر عن المتوسط أو انخفضنا قلت نسبة الأفراد .. فمثلا نسبة العباقرة قد لاتزيد فى المجتمع على ١ ٪ أو ٢ ٪ .. وبالمثل أيضا نسبة ضعاف العقول .. وأنه من الصعب بمكان رفع درجة ذكاء ضعيف العقل أو رفع درجة ذكاء الشخصية عموما إلا فى حدود ضيقة .. وعلى الرغم من أن هذه حقيقة تدعو للأسى إلا أنه ينبغى علينا الإشارة إليها ، حتى لايذهب بعض الآباء بعيدا وراء أوهام علاج أبنائهم من حالات الضعف العقلى التى يصابون بها ، وكل ماتقوم به مؤسسات علاج الضعف العقلى فى مصر وفى غيرها من البلدان الأجنبية لايزيد كثيرا عن كونه تدريبا لهم وتنشئة وتأهيلا لكى يتعلموا بعض العادات التى تساعدهم فى توافقهم مع أنفسهم ومع

مجتمعهم ، دون أن يعنى ذلك رفعا جوهريا فى درجة ذكائهم .. ويرجع ذلك إلى الدور الأكبر الذى تلعبه الوراثة فى تحديد ذكاء الفرد إذا ماقورن بدور البيئة .. وإذا كان هذا بالنسبة للذكاء فإن الأمر يختلف فى كثير من القدرات حيث تلعب البيئة أحيانا دورا كبيرا فى تحديدها أكثر مما تلعبه الوراثة .. ولذلك فإن التعليم والتدريب كثيرا مايرفع مستوى بعض القدرات لدى الأفراد .. فمثلا قدرتنا على الحديث أو القراءة بلغة أجنبية يعتمد إلى حد كبير على ظروف تربيتنا وتعليمنا وتدريبنا .. وبالمثل فإن قدرة فرد على القيام بأعمال ميكانيكا السيارات قد تكون قريبة من الصفر ، لكن بعد أن يتلقى تدريبا خاصا على هذه الأعمال ترتفع لديه القدرة الميكانيكية خاصة إذا كان الفرد ذكيا ولديه ميل قوى لتعلم الميكانيكا وهكذا ... وإذا قارنا بين الذكاء وبين القدرة الخاصة يتضح لنا الأهمية الكبرى للذكاء ، فلا يوجد فرد لايتأثر بالذكاء أو يمكنه الاستغناء عنه ، لكن كثيرا ماتوجد القدرات التى يمكن لنا أن نستغنى عنها ، مثل القدرة الميكانيكية أو القدرة الفنية أو قدرة حسية أو حركية معينة .... الخ .

هذا وينبغى أن نتذكر باستمرار أن النفس يرجع أساسها المادى دائما إلى البدن وأجهزته تحقيقا لمبدأ وحدة الشخصية الإنسانية المتكاملة من نفس وجسم .. وهكذا فإن كافة القدرات بما فيها الذكاء باعتباره قدرة عامة تستند فى نهاية الأمر على أساس مادى (جسمى) وتتأثر به ، وهو المخ والجهاز العصبى فى الإنسان عموما .. فإذا ماحدث خلل أو اضطراب فى أى منطقة من مناطق المخ أو الجهاز العصبى تأثرت تبعاً لذلك قدرات النفس البشرية وذكاؤها حسب درجة الإصابة ومنطقتها .

ثالثا : الدوافع النفسية :

تمثل الدوافع النفسية جزءا أساسيا من النفس البشرية ، بمعنى أنها جزء أساسى فى الجانب النفسى لشخصية الإنسان .. ونعنى بالدوافع النفسية طاقات داخلية فى الشخصية تدفعها للقيام بسلوك معين أو بنشاط مهما كان نوعه (حركياً ، فكريا ، تخييليا ، انفعاليا ، فسيولوجيا ... الخ) .. والدافع النفسى يستثير السلوك أو النشاط ويوجهه نحو تحقيق هدف معين . ولا يكُفُّ الدافع النفسى عن ذلك حتى يتحقق الهدف ، أو يعجز الفرد عن مواصلة السلوك ، أو يتحول عن الهدف ، أو يجبر على تأجيل تحقيقه حتى تحين ظروف أكثر مواءمة .. وتختلف الدوافع النفسية فيما بينها شدة وإلحاحاً واحتمالا للإرجاء .. فبينما نجد دافعا كالعطش أو الجوع من أشد الدوافع إلحاحا وقوة وأعصاها على الفرد تحملا للإرجاء الطويل ، (حتى إن الإرجاء لأيهما إن زاد عن حد معين قد يودى بحياة الفرد ذاتها) نجد أن الدافع إلى الجماع الجنسى من أكثر الدوافع طواعية للإرجاء واحتمالا له ، حتى إن بعض الأفراد قد ينجح فى أن يظل طوال حياته مقاوماً له ، غير ساع لإشباعه .

والدوافع النفسية كثيرة لايكاد يبلغها حصر .. ولقد مال بعض العلماء أمثال : ماكدوجال **Mcdougall** فى أوائل هذا القرن إلى تقسيم هذه الدوافع على أساس

ما إذا كان مصدرها الوراثة أو البيئة إلى دوافع فطرية تعرف بالغرائز **Instincts** مثل : غريزة الجوع وغريزة العطش وغريزة الأمومة وغريزة العدوان ... على أساس أنها مغروزة فى تكوين الفرد وليس الفرد فى حاجة إلى من يعلمه إياها ، وتقابلها الدوافع المكتسبة ، وهى التى يتعلمها الفرد ويكتسبها عن طريق خبراته وتجاربه واحتكاكه بوسطه وبيئته مثل اتجاهات الشخص وميوله وعاداته وعواطفه سواء حبا أو كرها لفلان من الناس أو لغيره من الموضوعات ... الخ .. لكن هذا التقسيم ينبغى النظر إليه بشىء من المرونة ، حيث يندر أن نجد دافعا فى النفس البشرية تنفرد الوراثة بتحديده ، أو آخر تنفرد البيئة بتحديده ، وإنما الأقرب للصواب أن نقول بأن كل دافع يتحدد بالوراثة وبالبيئة فى تفاعلهما معاً ، وإن كل مافى الأمر أن دافعا معينا يكون أكثر تأثرا بالوراثة (فنطلق عليه اصطلاحاً دافعاً فطرياً أو غريزيا) ، وأن دافعا غيره يكون أكثر تأثرا بالبيئة (فنطلق عليه إصطلاحاً أيضا دافعاً مكتسبا أو بيئياً) ، بل كثيرا مانجد الدافع الواحد يتشعب بدوره إلى عدد غير محدد من الدوافع النفسية ، فالفرد فى حالة الجوع على سبيل المثال .. نجده فى كثير من الأحيان مدفوعا للبحث عن طعام معين وليس أى طعام ، وهذا الدافع نحو طعام معين يختلف عند الفرد فى حالة الجوع من وقت لآخر .. فهو فى جوعه الآن يفضل الحصول على طعام معين تدفعه إليه رغبة شديدة فى تناوله هو بالذات ، بينما كان فى حالة جوعه بالأمس يفضل تناول لون آخر من الطعام ، وفى ظرف ثالث من جوعه يبحث عن أى طعام دون تحديد كما يحدث فى حالة التهديد بالموت جوعاً .

وبمعنى آخر فإن الشخص يكون لديه عدد غير محدد من الدوافع بقدر ماله عدد غير محدد من الرغبات التى يسعى إلى تحقيقها أو يتمنى ـ على الأقل ـ لو تحققت له .. وهى رغبات تتفق إلى حد ما مع رغبات غيره من الناس ، وتختلف إلى حد ما أيضا مع غيره من الناس .. إذن فلدى كل منا رغبات يشترك فيها مع غيره ، ورغبات أخرى خاصة به ومرتبطة ببنائه النفسى الخاص ولايكاد يشاركه فيها غيره .. ورغبات الفرد ودوافعه يتجدد بعضها ويتحول ولا يكاد يتحقق بعضها حتى يبرز أو ينشأ غيره .. وهكذا لاتنتهى رغبات الفرد وبالتالى دوافعه (إذ أن وراء كل رغبة دافعا خاصا بها) إلا بنهاية حياته .

وأيا ماكانت دوافع النفس البشرية ، أو الشخصية الإنسانية المعينة فإنه يمكن تقسيمها ـ كما فعل فرويد **Freud** وتلاميذه ـ إلى نوعين من الدوافع حسب مدى شعور الشخص بها ووعيه بوجودها فى داخل نفسه ، وهما :

(١) الدوافع الشعورية : Conscious Motives وهى تلك الدوافع التى يشعر الإنسان بوجودها داخله أو يمكن له أن يستدعيها أو يتذكرها إذا ماسئل عنها مثل : بماذا تحس الآن ؟ أو ماذا تريد الآن ؟ وماذا كنت ترغب تحقيقه أو عمله بالأمس ... فالشخص الجائع مثلا يحس بدافع الجوع ، والشخص الذى يميل للون معين من الطعام يشعر بميله لهذا اللون من الطعام ، والذى يحب الآن فلانا بينما كان يكرهه من قبل ، يحس الآن هذا الحب بينما يتذكر فقط كرهه من قبل .. وَنَصِفُ كل تلك الدوافع بأنها شعورية ، أى يعرفها صاحبها ويشعر بها ويخبرها بها ، وهو إن أنكرها أمامنا فهو يعترف بها بينه وبين نفسه ويحسها .

(٢) **الدوافع اللاشعورية Unconscious Motives** : وهى دوافع النفس البشرية التى لايشعر صاحبها بأنها موجودة لديه تدفعه لسلوك معين ونحو تحقيق هدف محدد .. وهى دوافع لاتظهر فى شعور الفرد ولافى وعيه ، لذا لانجد غرابة فى إنكاره لها إذا ما واجهناه بها .. وكل منا لديه دوافع لاشعورية كثيرة تؤثر فى سلوكه على الرغم منه ، فتطبعه بكيفيات معينة دون أن يعى الفرد وجودها وتأثيرها .. وبمعنى آخر فإن هذه الدوافع اللاشعورية الخاصة بشخص معين تعتبر كأنها غريبة عليه من وجهة نظره لعدم إدراكه لها وإحساسه بوجودها داخله .

وكثيرا ماتكون بعض الدوافع الشعورية غطاء لدوافع لاشعورية مناقضة لها .. إذ كثيرا مانجد دافع الحب الشعورى المفرط لدى شخص نحو آخر غطاء يخفى وراءه كراهية لاشعورية لهذا الآخر ، قد تتبدى صراحة فى أحلام الشخص ، فإذا به يرى هذا الآخر وقد قتل فى حادث أو ناله ضرر بالغ فى موقف معين ، وهكذا ... وفى مثل هذه الحالة تكون كراهية الشخص لهذا الآخر دافعا ، لاشعوريا بينما يكون حبه دافعا شعوريا .

على أن اللاشعورية تجاهد دائما لأن تصبح شعورية ، إلا أنها تفشل فى ذلك نتيجة مقاومة جانب من شخصية الفرد لهذه الدوافع ، وردها إلى المنطقة اللاشعورية من النفس البشرية إذا حاولت تجاوزها إلى المنطقة الشعورية .. إلا أن عملية التحليل النفسى للشخص-إذا حدثت - كفيلة بتفتيت المقاومة لهذه الدفعات والنزعات اللاشعورية ، وبالتالى يتاح لها أن تطفو على السطح وتدخل المنطقة الشعورية من النفس البشرية ، فتصبح بذلك شعورية يعيها الشخص ويحس بها ويعترف بوجودها ، فيتاح له عندئذ أن يحسن التعامل معها والسيطرة عليها وفقا لمبدأ : « **إذا عرفت استطعت** » .. ولذا كانت معرفة المريض النفسى بنفسيته ودوافعها اللاشعورية أولى خطوات الشفاء فى علاجه بالتحليل النفسى .

هذا وتحتل دوافع الفرد الخاصة فطرية كانت أم مكتسبة ، شعورية كانت أم لاشعورية أهمية بالغة فى بنائه النفسى وفى أوجه نشاطه المختلفة .. فهى التى تدفع الفرد للقيام بكافة أنواع السلوك ، وهى التى تكمن وراء كافة مايقوم به من نشاط ، **حتى إن القانون النفسى يقول لا سلوك بدون دافع** ، فإن لم يكن الفرد يحس بالدافع ويعيه فإنه يكون دافعا لاشعوريا ، وليس الدافع اللاشعورى - كما قد يتوهم البعض - أمرا مرضيا أو شاذا فى الشخصية ، بل هو أمر طبيعى فى البناء النفسى لأية شخصية بشرية .. فكل منا له دوافعه اللاشعورية الخاصة به ، كما أن له دوافعه الشعورية .. وكلا النوعين من الدوافع طبيعى ، إنما الذى يسبب المرض النفسى هو طريقة تعامل الفرد ومعالجته لدوافعه ، وهى طريقة خاصة بكل شخص على حدة .

رابعا : أساليب التوافق :

عندما ينشط دافع فى الشخصية طالبا الإشباع - سواء اصطلحنا على تسميته دافعا فطريا أو مكتسبا - شعوريا أو لاشعوريا - كدافع الطعام أو الدافع الجنسى مثلا - فإن الشخص يرغب فى إشباعه ، إلا أنه فى قيامه بذلك الإشباع يتقيد بقوى

أساسية ثلاث تُحِدُّ من حريته فى إشباع دوافعه إشباعا مباشرا وصريحا وكاملا هى : الواقع ، فقد يكون الواقع الخارجى غير ملائم للإشباع كالجائع الذى لايجد حوله ـ أو قريبا منه ـ مصدرا يحصل منه على الطعام ، وبعض جوانب بناء الفرد النفسى كالضمير الذى يمنع الإشباع المحرم كسرقة الطعام مثلا ، وعجز الشخص ذاته ، مثل ضعف قدراته وإمكانياته الخاصة التى تساعده على تحقيق الإشباع كضعف إمكانياته الحسية أو الحركية أو المالية ... الخ .

وفى تلك الحالات التى يُعَاقُ فيها إشباع الدافع النفسى إشباعا مباشرا وصريحا وكاملا ينشأ صراع بين الدافع الذى يريد الإشباع أو ممثله فى الشخصية ، وبين القوى التى تعوق هذا الإشباع أو تقف حائلا دونه .. وعند ذلك تصطنع الشخصية وتستخدم مايعرف بحيل التوافق أو أساليب التوافق ، للتخفيف من وطأة الإحساس المرير للشخصية بالإحباط Frustration (الحالة السيئةالتى تكون فيها الشخصية عندما تستثار دوافعها ولاتستطيع إشباعها) .. وذلك باللجوء إلى حلول توفيقية بين القوى الداخلة فى الصراع وإرضاء كل منها إرضاء نسبيا فى صورة حل ودى Compromise للصراع ، وهكذا تحقق الشخصية القدر المطلوب من التوافق والتوفيق والاستمرار بنجاح فى محيطها الاجتماعى .

ومن أهم حيل التوافق أو أساليبه مايلى :

(١) **القمع Suppression** : وهى حيلة تلجأ إليها النفس البشرية فتؤجل إشباع الدافع إلى أن تتهيأ الظروف المناسبة للإشباع ، كما يحدث للمرءوس عندما يكظم غيظه من رئيسه طالما كان فى وجوده ، حتى إذا انصرف من أمامه ، وأمن شره كال له أقبح الشتائم الممزوجة بأشد الإهانات وأسوأ عبارات التجريح ، ويلاحظ أن الشخصية تقوم بهذه الحيلة بشكل شعورى .

(٢) **الكبت Repression** : وهى حيلة تلجأ إليها النفس البشرية بشكل لاشعورى ، إذ لاتحس أو تشعر أنها تقوم بعملية الكبت .. وفى هذه الحيلة تقوم باستبعاد الدافع كلية أو باستبعاد الذكريات أو الأفكار من منطقة الشعور بالنفس البشرية إلى منطقة اللاشعور بها .. وعند ذاك لاتعود الدوافع أو الذكريات أو الأفكار يحس بها الإنسان بل تصبح لاشعورية .. لكن هذه الدوافع التى تكبت فى اللاشعور لاتموت بل تظل حية نشطة تعمل على الولوج إلى منطقة الشعور ، إلا أن قوى الكبت فى النفس البشرية تظل لها بالمرصاد حائلا بينها وبين أن تصبح شعورية .. فتضطر هذه الدوافع اللاشعورية المكبوتة إلى التماس الإشباع بغير الطريق الصريح المباشر ، فتسمح النفس البشرية لهذه الدوافع بالتعبير والإشباع عن طريق التخيل فى حلم أو هفوة أو مرض نفسى ، وهو بهذا إشباع غير مباشر يتم على مستوى لاشعورى .. ويقوم الكبت بالدور الرئيسى فى نسياننا لأفكارنا وذكرياتنا ومعلوماتنا ورغباتنا ، فلا نعود نتذكرها أو نحس بها حتى لاتسبب لنا ضيقا أو قلقا .

(٣) **التسامى (أو الإعلاء) Sublimation** : وهى حيلة تقوم فيها النفس البشرية بتحويل طاقة دافع من هدف أصلى تريد أن تحققه إلى هدف بديل مقبول أو محبذ اجتماعيا .. وهذه العملية تتم على المستويين الشعورى واللاشعورى ، على

نحو مايحدث لدى المراهقين من تحويل طاقة الدافع الجنسى القوية إلى موضوعات وأهداف لايعارضها المجتمع بل يحبذها ويؤيدها ، كالتحصيل العلمى والخدمات الاجتماعية والفن والرياضة والهوايات المختلفة .... وهكذا تستغل الطاقة الموجهة فى الأصل إلى الجنس فى نشاط مقبول اجتماعيا كبديل لهدفها الأصلى المرفوض .

(٤) **الإسقاط Projection** : وهى حيلة أو عملية تلجأ إليها النفس البشرية فى حلها للصراع الدائر فى الشخصية حول دافع معين بأن تتخلص من هذا الدافع فترميه أى تسقطه على شخص خارجى أو شىء خارجى .. وبهذا ترى الشخصية فى ذلك الشخص أو هذا الشىء الخارجى دوافعها هى واتجاهاتها هى وخصائصها هى دون أن تفطن إلى أنها دوافعها الخاصة أو اتجاهاتها وميولها وخصائصها الذاتية .. مثال ذلك : أن يسقط البخيل دافع البخل على الآخرين فيصفهم ظلما بالبخل الشديد دون أن يفطن إلى أن البخل جزء من نفسه هو وليس من الآخرين .. وهكذا فنحن نميل إلى أن نسقط دوافعنا وأحاسيسنا وميولنا التى نستنكف من الاعتراف بها على غيرنا من الأشخاص والأشياء بحيث نراها ملتصقة بهم بعيدة عنا (بعد أن تخلصنا منها بعملية الإسقاط) .. تماما كما يعتقد مريض الجنون أنه عاقل وأن الآخرين هم المجانين حقا وليس هو .. ونحن عندما نكره أحدا كثيرا مانسقط كراهيتنا عليه فنرى أنه هو الذى يكرهنا وليس نحن الذين نكرهه ، وخاصة أن دافع الكراهية غير محبذ اجتماعيا ، فنتخلص منه بنسبته إلى الغير ونفيه عنا .. والإسقاط يحدث على مستوى لاشعورى دون أن تفطن الشخصية إلى أنها تقوم بعملية الإسقاط هذه .. وهو لايشمل فقط الدوافع والاتجاهات والخصائص المرفوضة اجتماعيا ، بل ويعم غير المرفوضة أيضا من الدوافع والاتجاهات ، فالجائع غالبا مايدرك الصور الغامضة على أنها صور لألوان شهية من الأطعمة ، والشخص الذى يحس السعادة غالبا مايدرك أن الآخرين سعداء .. ولعل المثل العربى المعروف : « كل إناء بما فيه ينضح » تعبير عن هذه الحقيقة .. والجدير بالذكر أن جانبا كبيرا من الاختبارات والمقاييس النفسية للشخصية مبنى على أساس فكرة الإسقاط هذه .

(٥) **التوحد Identification** : **أو (التقمص)** :

لكى نفهم المقصود بعملية التوحد يحسن بنا أن نعرف المقصود بعملية المحاكاة Imitation أو التقليد .. فهذه العملية الأخيرة يقوم فيها الشخص ـ بوعى وبقصد ـ بتقليد ومحاكاة شخص آخر فى حركاته وتصرفاته .. وعملية المحاكاة هذه مؤقتة ، بحيث يعود المقلد إلى شخصيته العادية بعد انتهاء عملية المحاكاة ، تماما كما يقوم الممثل بتقليد نابليون فى حركاته وتصرفاته وعاداته طوال اعتلائه خشبة المسرح حتى إذا انتهى من روايته عاد الممثل لسيرته الأولى ، وفى موسم مسرحى آخر يمثل شخصية أخرى ... إذن هو يضع نفسه بشكل شعورى وضعا مؤقتا مكان الشخصية التى يمثلها ، أما التوحد فهى عملية تلجأ إليها النفس البشرية بشكل لاشعورى ودون أن تعى أنها تقوم بها حيث تتمثل بهذه العملية وتستدمج اتجاهات ودوافع وسمات شخص آخر بحيث تصبح اتجاهات ودوافع وسمات أصيلة لها تضرب جذورها فى أعماق بنائها الأساسى .. وهكذا فإن التغير الذى يحدث فى الشخصية

نتيجة عملية التوحد لايكون مقصودا ولا مؤقتا ولا مفتعلا كالذى يحدث فى موقف التمثيل أو المحاكاة ، بل يكون غير مقصود وعميقا فى تأثيره على الشخصية ومستمرا إلى حد بعيد .. وعلى هذا فالابن يتوحد بابيه ولايقلده ، والبنت تتوحد بأمها ولاتقلدها ، كما أن الشخص منا يتوحد بالشخصيات التى يرى فيها مثله العليا .. وفى حالة التوحد هذه يكون النجاح الذى يحدث لمن نتوحد بهم نجاحا لنا غير مباشر ، ويكون إشباع دوافعهم كأنه إشباع خاص لدوافعنا ، كما يكون الإحباط الذى تلاقيه دوافعهم (حرمان دوافعهم من الإشباع) إحباطا خاصا لنا ، وهكذا نسعد لسعادتهم ونتلذذ من إشباع دوافعهم ، كما نحزن لحزنهم ونيأس ليأسهم .. وإذا كان توحد الابن بأبيه والبنت بأمها من عوامل نموهما النفسى ، فإن الآباء أيضا بدورهم يتوحدون بأبنائهم فيدفعونهم دفعا لتحقيق مافشل الآباء فى تحقيقه ، حتى تصبح إشباعا غير مباشر لهم .. والمثل الشعبى القائل : « من أعطى ابنى بلحة نزلت حلاوتها زورى » تجسيد واضح لهذه الحقيقة .. وهكذا ، فإننا نميل لأن نتوحد بمن يشبع دوافعنا ويحقق ميولنا ، كنوع من الإشباع غير المباشر لدوافعنا طالما عز علينا إشباعها فى الواقع .. ويعتبر استمتاعنا بما يحصل عليه الأبطال فى الروايات والمسلسلات ... من إشباع لحاجاتهم عائدا إلى عملية التوحد التى تتم معهم ، فلا عجب إذن أن نجد بين المشاهدين (أو القراء) من يفعم سعادة لما يلاقيه البطل من نجاح أو إشباع ، أو ينفجر باكيا لما يلاقية البطل من مآسٍ وآلام .

(٦) **التعويض Compensation** : وهى حيلة تلجأ إليها الشخصية أحيانا بشكل شعورى ، وأحيانا على مستوى لاشعورى ، وأحيانا ثالثة تجمع بينهما ، حين تحس نقصا فى جانب بتقوية جانب آخر للتغلب على هذا النقص والتعويض عنه ، أو حين تحس الحرمان من نوع معين من الإشباع فتفرط فى نوع آخر منه ، لكى تعوض اللذة المتاحة ، وتقهر ألم الحرمان من الإشباع المستعصى .. وغالبا تمعن الشخصية فى استخادم حيلة التعويض هذه وتشتد فى نشاطها فيتحول الأمر إلى مايعرف بالتعويض الزائد Over — Compensation ، والذى جعله أدلر نظريته على نحو ماسنرى فيما بعد .

وعلى هذا نجد من فشل فى تعليمه وانخرط فى دوامة من النشاط والأساليب جلبت له كما هائلا من المال يكسبه الإحساس بالقوة التى حرمه الفشل فى التعليم منها .. كما قد نجد الضعيف فى عضو من أعضائه الجسمية ، قد اندفع فى نشاط واهتمامات تقوى لديه بشكل كبير عضوا غيره من أعضاء جسمه ، بحيث تغطى قوة العضو الأخير إحساس الضعف والعجز المتسبب عن قصور العضو العاجز .. وتلخص الحكمة الشعبية القائلة : « كل ذى عاهة جبار » فكرة التعويض الزائد هذه .. وهناك أمثلة كثيرة من الواقع تؤيد ذلك .. فالشخص يجب أن يثبت ذاته .. ويؤكدها فى مواجهة الآخرين وكأنه يقول لنفسه ولهم « لئن كنت قد حرمت من كذا إلا أنى عوضت بكذا .... » وفى هذا تعزية له وتسلية ، ورد اعتبار لذاته وعلاج لجراحه .

(٧) التبرير **Rationalization** : وهى حيلة لاشعورية تلجأ إليها النفس البشرية لتبرر وتسوغ سلوك الشخصية أو ميولها أو دوافعها التى لاتلقى قبولا من المجتمع أو من الغير أو من ضمير الشخصية نفسها (كجزء من أجزاء الشخصية) بحيث تقدم النفس البشرية فى هذه الحالة أسبابا وجيهة تبرر بها وتعلل السلوك أو الدافع أو الميل ، بحيث يقتنع الشخص ذاته على المستوى الشعورى بهذه العلل والتبريرات ، ويحاول إقناع غيره بها حتى لايلام على ذلك .. تماما كالتلميذ الذى رسب فى مادة دراسية معينة فيبرر لنفسه : بأن المدرس قد تعمد ذلك لخلاف شخصى بينهما ، ويكون التلميذ ذاته مقتنعا بهذا التبرير لأنه أتاه من مصدر لاشعورى .. وعملية التبرير هذه تؤدى هنا للشخصية فوائد كبيرة حيث تحفظ للشخص ثقته فى نفسه وتقديره لكفاءته وتطمئنه إلى نزاهة دوافعه ونقاء سريرته وميوله وصلاح سلوكه ، كما ترفع قيمته فى نظر الآخرين أو على الأقل تحافظ عليها ، أو توهمه بكل ذلك .. وفى المثل الشعبى القائل : « حبيبك يمضغ لك الظلط وعدوك يتمنى لك الغلط » مايلخص جوهر عملية التبرير ، ويؤكد كثرة لجوء النفس البشرية إليها .. فالحبيب هنا يبرر كافة سلوك المحبوب بحيث يصبح مقبولا حتى ولو كان مرفوضا ، وفى هذا تبرير لعاطفة الحب نفسها .. أما العدو فيفسر كل شىء من جانب عدوه على أنه خطأ وضار وعدائى مهما كان غير ذلك ، لكى يبرر العدو لنفسه وللآخرين سر عداوته لعدوه ، حتى تصبح عملية العداء هذه عملية مقبولة مبررة ، لاينظر الآخرون إليها على أنها مشوبة بالتجنى والافتراء .. وعملية التبرير كحيلة نفسية تلجأ إليها النفس البشرية على النحو السابق تختلف فى مفهومها عن تلفيق الأعذار وإيراد الأسباب التى تلجأ إليها الشخصية بشكل شعورى وهى تعلم أنها تكذب لتفادى موقف محرج وقعت فيه كعدم الوفاء بوعد مثلا .

(٨) النكوص **Regression** : هى حيلة لاشعورية يقصد بها عودة الشخصية إلى أنماط من الدوافع أو من السلوك ، والإشباع النفسى لرغباتها لاتتفق مع مرحلة النمو التى وصلت إليها الشخصية ، فتصبح مثلا كالشخص الراشد الذى ينطق الكلام بطريقة .. طفولية . وهكذا يؤدى النكوص بالشخصية لأن يصبح سلوكها غريبا .. وتلجأ النفس البشرية إلى هذه العملية إذا استحالت أمامها إمكانية إشباع دوافعها بالطريقة السوية .. فبكاء الشخص الراشد لاستدرار عطف الآخرين عليه لإشباع مطالبه هو نوع من عودته إلى سلوك طفل قد تخطاه فى نموه النفسى ، حيث كان يستخدم البكاء والعويل كأسلوب ضغط على المحيطين به ليجيبوه إلى مطالبه .. وهذه الطريقة المقبولة من الطفل الصغير لم تَعُدْ مقبولة من الذى يصل لمرحلة الرشد بل تصبح غريبة منه وغير مستساغة وشاذة .. وتلعب عملية النكوص هذه دورا أساسيا فى كافة الأمراض والانحرافات النفسية ، حيث نجد الشخصية التى بلغت سن الرشد وقد تراجعت إلى دوافع نفسية طفولية وأساليب إشباع غير ناضجة لم تعد تتفق وماوصلت إليه الشخصية من نضج جسمى وعمر زمنى .. ولذا تضطر النفس البشرية فى كثير من حالات نكوصها إلى تحريف دوافعها وأساليبها الطفولية حتى تموهها على الآخرين بل وعلى نفسها أيضا ، مما يجعل أعراض الأمراض النفسية غير مفهومة .

(٩) الأحلام **Dreams** : تعتبر الأحلام إحدى الحيل الأساسية التى تلجأ إليها النفس البشرية لإشباع دوافعها التى تلح طالبة الإشباع ، خاصة إذا كان هذا الإشباع مستحيلا فى عالم الواقع ، ففى الأحلام يرى الفرد دوافعه وقد تحققت فى صورة حدث أو خبرة يعيشها فى الحلم .. والمثل الشعبى القائل : « الجعان يحلم بسوق العيش » خير تعبير عن هذه الحقيقة العلمية قبل اكتشاف فرويد لها ، وإقامته الدليل على صحتها بمئات السنين .. ويصدق هذا على أحلام اليقظة Day Dreams ، كما يصدق أيضا على أحلام النوم Dreams .. ففى أحلام اليقظة يستسلم الفرد لتخيلات يرى فيها نفسه وهو يحقق آماله ويشبع دوافعه ويتخطى العقبات التى تحول دون ذلك .. وهكذا يحلم الفقير بفوزه بجائزة مالية ضخمة ، ويتخيل نفسه وقد تسلمها ثم ذهب إلى هنا وهناك لشراء مايلزمه وتحقيق مايريده من هذا المال .. كما يحلم الفاشل بالنجاح ، ويحلم الضعيف بالقوة ، ويحلم المَوْتُور من خصمه بفوزه عليه وبمصائب كبيرة تلحق به ، وهكذا ... أما أحلام النوم فغالبا ماتكون فيها الرغبات مموهة مخفاة ، بحيث لايعى الحالم نفسه دوافعها فى كثير من الحالات ، وذلك لأن العمليات والحيل والأساليب التى يلجأ إليها النائم فى صناعة حلمه لإشباع دوافعه تكون عمليات وحيلا وأساليب من طبيعة خاصة تميز اللاشعور عن الشعور فيما يستخدم من حيل ومنطق .. ومن هنا فإن الكثير من أحلام النوم تبدو ممسوخة خلوا من المعنى والمنطق شبيهة بتفكير المجانين ومنطقهم ، على عكس أحلام اليقظة .. ويرجع ذلك إلى أن حالة النوم تعطى فرصة أكبر للاشعور حتى يعبر عن نفسه ويشبع دوافعه ويخرج مكنوناته .. لهذا فإن ذاكرتنا فى النوم أقوى من ذاكرتنا فى اليقظة ، ففى أحلام اليقظة نتذكر بوضوح كثيرا من الأحداث والشخصيات المنسية فى حالة اليقظة .. ولما كنا فى أحلام اليقظة أقرب إلى الشعور بينما نكون فى أحلام النوم أقرب إلى اللاشعور ، فإن أحلام اليقظة تكون أكثر استخداما لأساليب التفكير الشعورى ومنطقه أكثر إشباعا لدوافعه ، بينما تكون أحلام النوم أكثر استخداما لأساليب التفكير اللاشعورى ، ومنطقه أكثر إشباعا لدوافعه ، ومن هنا يصعب تفسير أحلام نومنا لأننا غير معتادين على أساليب التفكير اللاشعورى ومنطقه وأقل معرفة بدوافعه فى نفس الوقت .. وينجح التحليل النفسى وحده فى تفسير أحلام النوم وكشف مايتحقق فيها من دوافع تشبعها هذه الأحلام خاصة إذا كانت هذه الدوافع لاشعورية .. وعلينا أن نؤكد هنا أن أحلام النوم لاتنتج فقط عن دوافع لاشعورية بل نجد فيها الكثير من الدوافع الشعورية التى يعرضها الحالم جيدا ويحس بها ويعيها .

وينبغى أن نختتم عرضنا السابق هذا لحيل التوافق التى تلجأ إليها النفس البشرية فى معالجة دوافعها وتحقيق توافقها مع نفسها ومع محيطها بثلاث **ملاحظات هامة** :

(١) إننا جميعا ـ سواء كنا أسوياء أو مضطربين نفسيا ـ نلجأ إلى جميع هذه الحيل ونستخدمها .. وإن الذى يفرق بين استخدام الأسوياء لها واستخدام المضطربين هو الاستخدام المعتدل والمفيد ، بحيث يؤدى إلى تحقيق توافق

الشخصية وراحتها النفسية ونجاحها فى التعايش مع المجتمع والواقع ، أو الاستخدام السيء لها بحيث يؤدى إلى فشل الفرد فى تحقيق راحته النفسية وتوفيقه وتوافقه فى علاقاته مع الواقع والمجتمع .. فمثلا مرضى الهذاء (جنون الاضطهاد وجنون العظمة) يسرفون فى استخدام حيلتى الإسقاط والتبرير حتى يؤدى بهم ذلك إلى المرض النفسى وسوء التوافق .

(٢) إن النفس البشرية فى مواجهتها لدافع نفسى واحد قد تستخدم أكثر من حيلة من هذه الحيل .. ففى مواجهة الشخص لعاطفة محرمة أو مدانة نحو آخر ، كعاطفة الكراهية مثلا ، يسقطها على هذا الآخر ، فإذا به لايرى أنه يكره الآخر بل إن الآخر هو الذى يكرهه .. كما يستخدم حيلة التبرير فى نفس الوقت فيبرر لنفسه وللآخرين أسباب كراهية هذا الآخر له ، فقد يعللها بالغيرة مما أصابه من نجاح ، أو بالحقد والدناءة التى تميز نفسية الآخر وتطغى على بنائها .... وهذا مظهر من مظاهر تعقد الحياة النفسية للإنسان حيث يعالج دافعه الواحد بعدة طرق .

(٣) إن الشخص كما يمكنه أن يلجأ إلى أكثر من حيلة لإشباع أو مواجهة دافع واحد ـ على نحو مارأينا فى الملاحظة السابقة ـ فإنه أيضا كثيرا ما يلجأ إلى حيلة واحدة أو أسلوب واحد أو سلوك واحد لإشباع أكثر من دافع فى نفس الوقت .. فكبت الشخص أو قمعه لواقع العدوان نحو رئيسه قد يشبع به عدة دوافع لديه مثل : إبعاد خوفه من أن يعاقبه رئيسه ، ورغبته فى عدم تأخير الترقية ، ورغبته فى إشباع حاجته للأمن ، وعدم ظهوره بمظهر الشخص العدوانى فاقد السيطرة على أعصابه مما يضر بسمعته .... ولاشك أن هذا أيضا مظهر من مظاهر تعقد الحياة النفسية ، بحيث يشبع السلوك الواحد أكثر من دافع ويؤدى الدافع الواحد ـ بالمقابل ـ إلى أكثر من سلوك ، وعندئذ يصعب تفسير السلوك لتشابك العوامل والمسببات .

خامسا : مستوى الصحة النفسية :

يعتبر مستوى الصحة النفسية جانبا هاما من جوانب الشخصية ، بحيث لانكاد نصف شخصية دون ذكر أو إشارة إلى مستوى صحتها النفسية .. فمستوى الصحة النفسية من أشد جوانب الشخصية تأثيرا على سلوكها ونشاطها وعلاقاتها مع محيطها ومجتمعها .. ذلك أن الصحة النفسية للفرد إن اضطربت انعكس ذلك على كل أفعاله ونشاطه وعلى كل علاقاته بما يحيط به ، فإذا بأفعاله ونشاطه يختلان فلا يحققان هدف التوافق والنجاح ، وإذا بعلاقاته المختلفة مع الأفراد والواقع تضطرب فلا يعود يدركها الإدراك السليم أو يفهمها حق الفهم ويؤولهما تأويلا خاطئا يؤثر تأثيرا سلبيا على تعامله معهما .. وقد يصل الأمر بالفرد ـ كما يحدث فى الجنون ـ أن يصبح خطرا على نفسه ـ كما فى حالات الاكتئاب التى يحاول فيها المريض الانتحار ـ أو يصبح خطرا على الآخرين ـ كما فى حالة جنون الاضطهاد ـ فيحاول تدمير الآخرين قبل أن يدمروه (كما يتوهم) .

ولكل منا مستوى معين من الصحة النفسية ، قد يزيد عن زميله أو ينقص ، بل قد يزيد أو ينقص فى بعض فترات حياته المختلفة ، تبعا لما تمر به من أزمات ،

ومايواجهه من صدمات .. إلا أن الصحة النفسية لاتقتل مرحلة الاضطراب أو المرض إلا إذا بلغت من الشذوذ والغرابة فى تصرفاتها حدا ملحوظا .

ومن أهم العلامات التى تشير إلى ضعف الصحة النفسية اضطراب الإدراك ، كما يحدث فى حالات الهلوسة ، حيث يحس الفرد أحاسيس ليست لها تنبيهات حقيقية فى الواقع ، كأن يسمع المريض شخصا يناديه أو يحادثه ، وهو فى هذه الحالة يراه ويسمع صوته ويتلقى عنه وينقل إليه ، ويكون المريض مصدقا لكل مايحس به ، كالنائم الذى يرى حلما فى نومه ، لكن المريض فى حالة الهلاوس التى تعتبر عرضا مرضيا يكون فى حالة اليقظة .

وأيضا من العلامات التى تدل على ضعف الصحة النفسية نجد اضطرابات التفكير ، كتسلط أفكار غير واقعية ولا منطقية وغير متفقة مع ماهو عليه الفرد من مستوى عقلى أو تعليمى أو اقتصادى أو اجتماعى أو وظيفى مثل : مايعرف بالهذاءات Delusions وهى عبارة عن معتقدات يعتقدها المريض رغم ماتكون عليه من سخافات ومجافاة للمنطق أو الواقع .. ولايمكن إقناع المريض فى مثل هذه الحالة بفساد هذا الاعتقاد وعدم صحته ، كاعتقاد بعض المرضى أنهم أنبياء ويتنزل عليهم الوحى من قبل الإله ، أو اعتقاد آخرين بأنهم شخصيات تاريخية عظيمة ، فهذا يعتقد أنه نابليون ، وذاك يعتقد أنه مات وبعث من جديد لإنقاذ البشرية ....الخ .. ومن اضطراب التفكير أيضا مايعرف بخلط التفكير Bizzarre Thinking ..وفيه نجد المريض ينتقل فى حديثه أو كتاباته من فكرة إلى أخرى انتقالا مفاجئا دون وجود رابط منطقى بين الفكرة السابقة والفكرة اللاحقة ، بحيث تصعب على السامع أو القارىء عملية المتابعة أو الفهم .. وقد تضطرب ذاكرة المريض لدرجة قد يستحيل معها وعيه بهويته ومسكنه وعمله وأسرته .

وتعتبر اضطرابات الانفعال أيضا من علامات ضعف الصحة النفسية .. فالفرد السوى يكون انفعاله مناسبا للموقف الذى يستثير الانفعال سواء من حيث نوع الانفعال أو شدته .. فالشخص الذى يحس السعادة البالغة والفرح الطاغى دون أن يكون فى واقعه مايبرر ذلك (كالمريض بالهوس) أو الشخص المناقض له (كالمريض بالاكتئاب) ، والذى يحس بحالة من الحزن الشديد أو الاكتئاب دون مسبب واقعى ، كلاهما به ضعف فى صحته النفسية .. وفى أحيان كثيرة قد يحاول المكتئب وينجح فى الانتحار .. ولذا وجب على الأسرة أو المصحة الانتباه إلى حراسة حياته .

كما أن هناك بعض الأعراض الجسمية التى تتسبب عن اضطراب يصيب النفس البشرية ، كبعض أمراض السكر وضغط الدم (واللذين ينجمان عن مخاوف أو انفعالات غضب شديدة أغلبها لاشعورية) ، وكبعض أمراض قرح المعدة (والتى تصيب الذي يحتاجون إلى الحب الشديد والرعاية الزائدة ، وطبعا يكون ذلك فى غالبه لاشعوريا) ، وأيضا كحالات الهستيريا التحولية Conversion Hysteria ، حيث يفقد عضو بدنى قدرته على ممارسة وظيفته دون إصابة تشريحية فى العضو ذاته أو فى مراكزه بالدماغ أو فى الأعصاب الموصلة بين العضو وبين مراكزه

بالدماغ .. ومن أمثلة ذلك : كف البصر الهستيرى ، حيث يفقد المريض قدرته على الإبصار بينما تبقى العين وأجزاؤها ومراكزها بالدماغ والأعصاب الموصلة بين كل ذلك سليمة ، ومع هذا لاتستطيع العين الرؤية .. علما بأن غالبية أجزاء الجسم قابلة للإصابة بالهستيريا التحولية ، كما يحدث فى شلل الأطراف الهستيرى أو فقدان الحس الهستيرى أو فقدان العضو الجنسى قدرته على ممارسة الجنس ، دون أن تكون فى كل هذه الحالات إصابات تشريحية تبرر هذا الخلل فى وظيفة العضو الجسمى المشلول هستيريا .. وفى حالات الأعراض الجسمية الناتجة عن اضطراب نفسى لاينجح العلاج إلا إذا كان علاجا نفسيا بالدرجة الأولى .

على أن انحرافات السلوك تعتبر أكثر وأشد أعراض اضطراب النفس البشرية انتشارا وأثرا على الفرد والمجتمع ... مثل الجرائم بأنواعها المختلفة ، كالقتل والسرقة والدعارة والانحرافات الجنسية وجرائم الرشوة والتهريب وترويج المخدرات وتعاطيها ... كل ذلك سلوك منحرف يصدر عن نفس بشرية مضطربة .

واضطراب الصحة النفسية معناه فى نهاية الأمر أنه تبديد لطاقة النفس البشرية وإهدار لها فى مسارب لاتعود عليها بفائدة ، وبحيث لايبقى للنفس البشرية من طاقة تساعدها على تأدية وظائفها بكفاءة عالية ، تماما كالمرض الجسمى الذى يصيب الفرد فيبدد طاقته الجسمية بحيث لايستطيع الجسم أداء نشاطه المطلوب منه ، ولاتعود أعضاؤه تقوى على أداء وظائفها كالمشى أو الجرى أو حمل الشىء أو دفعه .....الخ .

يمكن أن نخلص من كل ماسبق إلى : أن تشريح النفس البشرية يؤدى بنا إلى النظر إليها على أنها كتلة من الدوافع : حاجات ورغبات ومخاوف وآمال ، فطرية ومكتسبة ، شعورية ولا شعورية ، تعمل على إشباعها وتلبية مطالبها باستخدام ما أتيح لها من ذكاء وقدرات ومهارات خاصة ، وحيل وأساليب توافقية مختلفة ، وما تتمتع به من صحة وسلامة نفسية .. والنفس البشرية فى كل هذا تستند إلى قاعدة مادية هى الجسم بأجهزته وطاقاته المختلفة .. وتمر النفس البشرية فى مراحل من النمو تقابل مراحل النمو الجسمى هادفة نحو اكتمال وعيها وقدراتها وطاقاتها الذى يمكنها من السلوك الأكثر رشدا ، والتوافق فى الحياة الأكثر نجاحا ، والبقاء فى الزمن والاستمرار فى الحياة سواء بذاتها عن طريق تعاقب الأبناء وإيراث الحضارة .

آراء ونظريات فى النفس البشرية

احتلت النفس البشرية منذ وعى الإنسان وحتى الآن مساحة كبيرة ومتزايدة من اهتمامه الفكرى ومباحثه العلمية .. فلمعظم فلاسفة اليونان ، ثم علماء المسلمين بعدهم ، ثم أخيرا علماء الغرب والعالم بصفة عامة آراء أو نظريات خاصة فى النفس البشريـة ، تعكس تصور كل منهم لها وتفصل آراءهم فيها .. وتتناثر هذه الآراء وتلك النظريات فى مؤلفاتهم عامة ، وقد تنتظم أحيانا أخرى فى مؤلفات خاصة بالنفس .

فمن آراء العرب قبل الإسلام فى النفس البشرية ماسبق أن ذكرناه فى التمهيد لحديثنا هذا من أن : « العرب قد تجعل النفس التى سيكون بها التمييز نفسين ،

وذلك أن النفس قد تأمره بالشيء وتنهى عنه ، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه ، فجعلوا التى تأمره نفسا وجعلوا التى تنهاه كأنها نفس أخرى ... » ومن ذلك قول حاتم الطائى الذى توفى قبل البعثة المحمدية .

« أشاور نفس الجود حتى تطيعنى .. وأترك نفس البخل لا أستشيرها »

ويوضح هذا أن العرب كانوا من أوائل من قال بتقسيم نفس الشخص الواحد الى أقسام ، والصراع بين هذه الأقسام .. فقسم من النفس يدفع إلى الشر وقسم آخر يدفع إلى الخير ، وهما فى الشخص الواحد فكأنهما نفسان .. وستتردد نفس الفكرة بعد ذلك بأكثر من ثمانية عشر قرنا على يد واحد من أكبر علماء الطب والنفس هو سيجموند فرويد ، فيبلورها ويدلل على فكرة تقسيم النفس والصراع بين أقسامها فى نظريته المعروفة بالتحليل النفسى ، والذى نادى بها منذ أواخر القرن الماضى .

نظرية ابن سينا :

أما ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٦) والذى يعتبر من أكبر فلاسفة المسلمين وأشهر أطبائهم وعلمائهم ، فقد ألف كتابا خاصا عن النفس هو الجزء الساس من كتابه الكبير « الشفاء » .. وقد عنيت الهيئة المصرية العامة للكتاب بتحقيقه ونشره .. ويعتبر كتاب النفس لابن سينا من أهم ما ألفه المسلمون فى علم النفس ، حتى إنه يعادل فى قيمته كتاب النفس لأرسطو .. ويرى ابن سينا فى هذا الكتاب أن النفس جوهر روحى ، وهى صورة الجسم ، « ولها أعمال متنوعة تلزم أن تكون لها قوى مختلفة » .. وهذه القوى تنقسم بوجه عام إلى قسمين : قوى ظاهرة (أو حواس ظاهرة) هى حواس اللمس والشم والذوق والسمع والبصر .. وقوى باطنة (أو حواس باطنة) هى الحس المشترك (وهى الحس الذى يميز بين معطيات الحواس المختلفة) .. وقوى النفس المصورة والمفكرة والمتذكرة والمتخيلة والناطقة .. « على أنه برغم فصله بين قوى النفس الظاهرة والباطنة يحرص على أن يشير إلى أنها متداخلة ومتعاونة فيما بينها ، فالإحساس متصل بالخيال ، والذاكرة لاعمل لها بدون الصور الحسية ، والنفس الناطقة إنما تغذى عن طريق الحواس » .

وفى تعمق ابن سينا فى شرح نظريته فى الإدراك الباطنى يقول : « وأما القوى المدركة من باطن فبعضها قوى تدرك صور المحسوسات ، وبعضها تدرك معانى المحسوسات .. ومن المدركات مايدرك ويفعل معا ، ومنها مايدرك ولا يفعل ، ومنها مايدرك إدراكا أوليا ، ومنها مايدرك إدراكا ثانيا .. والفرق بين إدراك الصورة وإدراك المعنى أن الصورة هى الشيء الذى يدركه الحس الباطن والحس الظاهر معا .. لكن الحس الظاهر يدركه أولا ويؤديه إلى الحس الباطن مثل إدراك الشاة لصورة الذئب أعنى لشكله وهيئته ولونه ، فإن الحس الباطن من الشاة يدركها ، لكن إنما يدركها أولا حسها الظاهرة .. وأما المعنى فهو الشيء الذى تدركه النفس من المحسوس من غير أن يدركه الحس الظاهر أولا ، مثل إدراك الشاة للمعنى المضاد فى الذئب أو للمعنى الموجب لخوفها إياه ، وهربها عنه من غير أن يدرك الحس ذلك البتة .. فالذى يدرك من الذئب أولا الحس الظاهر ثم الحس الباطن ، فإنه يخص فى هذا الموضع

باسم الصورة .. والذى تدركه القوة الباطنة دون الحس فيخص فى هذا الموضع باسم المعنى .. » ولعل كلام ابن سينا هذا يذكرنا بما يقوله علم النفس الحديث عن الحس Sensation والإدراك الحسى Perception والانفعال Emotion والعلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر الثلاث .

نظرية سيجموند فرويد Freud (نظرية التحليل النفسى Psychoanalysis) :

لعل نظرية فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩) ، فى النفس البشرية والتى تعرف بنظرية التحليل النفسى هى أشهر نظريات علم النفس قاطبة منذ أوائل القرن الحالى حتى الآن .. ولقد بلغت من الذيوع والانتشار حدا جعل استخدام مفاهيمها الرئيسية ذائعا ليس فقط فى علم النفس ، بل وأيضا فى كل مايتعلق بالإنسان من علوم وفنون كالطب والاجتماع والأنثروبولوجيا والفلسفة والدين والأدب والمسرح والفنون التشكيلية .... بل إن كثيرا من المدارس والاتجاهات فى تلك العلوم والفنون قد استمدت أصولها ومنطلقاتها من مبادىء التحليل النفسى ونظريته ومقولاته .

ويرى فرويد فى تشريحه للنفس البشرية أنها تتكون من ثلاثة أجهزة تفاضلت عن بعضها وخرجت من أصل واحد وهى : الهى (أو الهو) .. Id والأنا Ego والأنا الأعلى Super Ego .

فالهى تمثل الشخصية عند ولادتها قبل أن تحدث عليها أية تحويرات أو تعديلات نتيجة لاحتكاكها بالبيئة ولتراكم خبراتها وثراء تجاربها .... وعلى ذلك فالشخصية عند ولادتها لاتكون إلا « هى » فقط ، ولايكون الجهازان الآخران للشخصية (أو للنفس البشرية) وهم الأنا والأنا الأعلى قد ظهرا بعد .. والهى مستودع الطاقة والغرائز ، وتعمل وفق مبدأ اللذة (أى طلب اللذة العاجلة بأية وسيلة ودون اعتبار للواقع أو تفكير فى العواقب) .. وبعد ولادة الطفل يبدأ احتكاكه بالواقع ويشرع فى تمثل مبادئه والانصياع لقيوده ، حتى يتعايش معه فلا يسحقه الواقع أو يضره إن هو تجاهله .. ومن هنا يتعدل جزء من الهى مكونا الأنا الذى يبدأ فى النمو مع زيادة احتكاكه بالواقع .

ويعمل الأنا وفقا لمبدأ الواقع (أى الامتثال للظروف والقيود التى يفرضها عليه العالم الخارجى) .. وتكون مهمته الأساسية المحافظة على الشخصية ضد ماتتعرض له من أخطار ، وإشباع متطلباتها بشكل لايتعارض مع الواقع وظروفه .. ولهذا فإن بعض نشاط الأنا يكون على المستوى الشعورى (كالإدراك الحسى الخارجى والداخلى والعمليات العقلية) ، كما يكون بعض نشاطه لاشعوريا (كحيل الدفاع أو التوافق المختلفة من كبت وإسقاط وإعلاء ومالى ذلك ... » ويتكفل الأنا ، دون الهى بالدفاع عن الشخصية وتوافقها مع البيئة ، وحل الصراع بين الكائن الحى والواقع ، أو بين الحاجات المتعارضة للكائن الحى ، وينظم الوصول إلى الشعور وإلى التعبير الحركى ، ويضمن الوظيفة التنسيقية للشخصية » .

أما الأنا الأعلى فهو جانب من الأنا أصابه التعديل نتيجة اعتناق الشخص وامتصاصه للأوامر والنواهى والمثل العليا والمعايير التى تأتيه من أبويه ومن يقوم مقامهم فى المجتمع .. ويطالب الأنا الأعلى الشخصية بالتزام المثل العليا

والأخلاقيات فى أفعالها وسلوكها .. ويقوم الأنا الأعلى بثلاثة وجوه من النشاط : « مراقبة الذات ، وإقامة المثل العليا ، والضمير الخلقى ... إن الأنا الأعلى ـ فى نظرنا ـ ممثل جميع القيود الخلقية ، والمتكلم بلسان النزعة إلى الكمال ، وعلى الجملة فهو يمثل من الناحية النفسية ما ألف الناس أن يسموه الصفات السامية فى الحياة الإنسانية ... » .

ويتبدى نشاط الأنا الأعلى فى حالة صراعه مع الأنا « بإنماء انفعالات تتعلق بالوجدان الخلقى ولاسيما وجدان الإثم .. وبعض المواقف التى توجد فى حالات السواء مثل ملاحظة الذات وانتقاد الذات والتحريم ، تأخذ فى بعض الأمراض (النفسية) ... صورة تبلغ من الخطورة بحيث إن قلق الضمير يجعل الحياة لاتطاق .. وفى هذه الحالات من المازوكية النفسية (أى تعذيب الذات) تستحوذ على الفرد حاجة لاتكبح إلى اتهام الذات وعقابها ، وإلى معاناة العذاب والفشل .. ويتكون الأنا الأعلى بتقمص الطفل للصورة المثالية للأب ، وفى الحالات السوية يكون الأب المتقمص هو الأب المماثل جنسيا .. وينسب فرويد الدور الرئيسى (فى تكوينه) إلى التقمصات التى تصفى الصراع الأوديبى .. ولكن هذه التقمصات لاتمنع من وجود أخرى أسبق منها أو لاحقة عليها .. وإذا لم يكتمل نمو الأنا الأعلى اكتمالا صحيحا ، فإنه يحتفظ بتركيب مشوه يتصف بمنطق فج ، فنرى الأنا الأعلى يعامل الأنا مثلما يعامل الأب القاسى ابنه ... »

ويرى فرويد أن الشخصية (أو النفس البشرية) تمر فى نموها بمراحل تحدد علاقتها بالعالم الخارجى والداخلى وأساليبها فى إشباع دوافعها .. كما يرى أن مراحل نمو الشخص فى السنوات الخمس الأولى من طفولته تمثل أخطر مراحل حياته تأثيرا على بنائه النفسى ، حيث تتحدد سمات شخصيته الأساسية فى هذه الفترة من نموه .. ولذا يعطيها أهمية بالغة فى تأثيرها على تكوين شخصية الراشد وخصائصها .. ففى هذه السنوات الخمس الأولى من حياة الفرد يمر أولا بالمرحلة الفمية وتستغرق السنة الأولى تقريبا ويكون مصدر لذة الطفل الأساسية مركزا حول الفم ولذة الأكل والامتصاص وتنبيه الشفتين ونشاطهما .. وتلى المرحلة الشرجية بعد ذلك وتستغرق السنة الثانية وبعض الثالثة على وجه التقريب ، حيث تكون عملية الإخراج واستثارة الشرج وتهيجة مصدر اللذة الرئيسية للشخصية .. يلى ذلك المرحلة القضيبية حيث تحتل المشاعر الجنسية المرتبطة بوظائف الأعضاء الجنسية والنشاط المرتبط بها كالتخيل والعبث بالأعضاء الجنسية وتوجيه شحنات عداء نحو المنافس من نفس جنسه على موضوع حبه .. نقول يحتل كل ذلك مركز الثقل فى نفس الطفل (أو فى الشخصية) .. وتستغرق هذه المرحلة بعض السنة الثالثة إلى السنة الخامسة تقريبا .. وفى هذه المرحلة تتكون عقدة أوديب وتحل فى نهاية المرحلة حلا موفقا فى حالة النمو النفسى السليم للشخص ... « وتستمد عقدة أوديب اسمها من ملك طيبة الذى قتل أباه وتزوج بأمه .. وعقدة أوديب فى إيجاز : هى شحنة حب تستهدف الوالد من الجنس الآخر ، وشحنة عداء توجه للوالد من نفس الجنس .. فالصبى يرغب فى امتلاك أمه واستبعاد أبيه على حين ترغب الفتاة فى

امتلاك أبيها وإبعاد أمها .. وتعرب هذه المشاعر عن نفسها فى تخيلات الطفل أثناء الاستمناء وفى التذبذب بين الأفعال الدالة على الحب والأفعال المعربة عن التمرد والثورة إزاء والديه .. ويتميز سلوك الطفل فيما بين الثالثة والخامسة من عمره ، إلى حد كبير ، بفاعلية عقدة أوديب .. وهى بالرغم من تعديلها وماتلقاه من كبت بعد الخامسة من العمر ، تظل قوة فعالة فى الشخصية طوال الحياة .. مثال ذلك : إن الاتجاهات نحو الجنس المقابل ، ونحو ذوى السلطة من الأفراد تكون - بدرجة كبيرة - رهن العقدة الأوديبية ... » .

ويرى فرويد أن المرحلة الأوديبة تعقبها مرحلة الكمون ، والتى تمتد تقريبا من السادسة حتى بداية المراهقة .. وفى مرحلة الكمون هذه تهدأ دوافع الطفل ونزعاته الجنسية والعدائية ، وتستقر نفسه تمهيدا لفورتها وهياجها مرة أخرى مع المراهقة .. ثم تستقر نفسه ودوافعه تدريجيا فى مسيرة نحو الرشد .. كما يرى فرويد أن اضطرابات الشخصية وانحرافاتها وأمراضها النفسية ترجع كلها إلى اضطرابات وصعوبات وعثرات وسلبيات وصدمات صادفها الشخص فى سلسلة نموه النفسى خاصة فى مراحل سنواته الخمس الأولى .

أما رأى فرويد فى دوافع الشخصية ، فإنه يرجعها جميعا إلى غريزتين أساسيتين هما : غريزة الحب وغريزة العدوان .. فكل سلوك البشر إما أن يرجع إلى دافع العدوان أو إلى دافع الحب أو إلى مزيج منهما .. ولقد توسعت نظريته فى مفهوم العدوان ليشمل أى نزعة تهدف إلى التدمير أو الإضرار بالذات أو بالآخر أو بالأشياء مهما كان لون الضرر أو درجة العدوان .. وبالمثل أيضا توسعت نظريته فى مفهوم الحب بحيث شمل كافة دوافع البناء والود والإفادة والجنس والمتعة والحياة ، سواء التى يوجهها الفرد نحو ذاته أو نحو غيره من أشخاص أو أشياء . وفرويد يرى أن غريزة العدوان كغريزة الحب فطرية فى الإنسان لايحتاج إلى تعلمها ولايهدأ إلا بإشباعها ، فهما مغروزتان فى تكوينه الفطرى الطبيعى ، ولقد دلل بأمثلة كثيرة من التاريخ ومن الواقع المعاش ومن التحليل المتعمق لكثير من جوانب سلوكنا وعاداتنا على صدق نظريته فى الدوافع والنظرة الفاحصة المتأنية ستثبت لنا إمكانية إدخال أية نزعة أو دافع إنسانى تحت واحدة من هاتين الغريزتين .. كما أن نظرة شاملة لما يحدث فى عالمنا اليوم وحدث فيه بالأمس من انتشار للتوتر والحروب بين الجيران وغير الجيران من الدول ، وتعرض العالم لحربين طاحنتين خلال ربع قرن من الزمان ، وفشل محادثات نزع السلاح والحد منه حتى الآن ، واستنزاف الدول الغنية المستمر لاقتصاديات الدول الفقيرة ، كل ذلك ولاشك يؤكد أن التحليل النفسى على حق فى نظرياته الخاصة بما تنطوى عليه النفس البشرية من نزعات ودوافع عدوانية إلى جانب نزعات الحب والبناء فيها .. بل إن كثيرا من العادات والتصرفات الفردية والمشكلات والأمراض الاجتماعية كإدمان المخدرات على سبيل المثال لايمكن فهمها بمعزل عن دافع العدوان والتدمير الذى يلحقه الفرد بنفسه وبغيره وبمجتمعه عندما يتعاطى أو يروج أو يتجر فى هذه المخدرات وتلك السموم .. ويمكن أن يقال مثل هذا

عن تفسير الجرائم التى ترتكب ومظاهر العنف المختلفة التى نسمع كثيرا عنها ، وما إلى ذلك من ظواهر الاختلاسات والفساد التى تنتشر فى المجتمع .

بل إن كثيرا من آراء فرويد ونظريته نجد مصداقا لهما إن تمعنا فى أنفسنا وفيمن حولنا .. فكثيرا مما نقوم به من سلوك ومانتصف به من صفات يمكن فهمه وتفسيره فى ضوء نظرية فرويد وآرائه .. ففى بيت الشعر الذى ينسب لحاتم الطائى قبل الإسلام ، والذى أوردناه سابقا مايؤكد حقيقة انقسام النفس الواحدة إلى أكثر من جانب ، وكأن كل جانب منها نفس مستقلة .. فحاتم الطائى يقرر أن ذاته تحتوى على نفسين : نفس الجود ونفس البخل ، وأن لكل منهما رغبة تضاد الأخرى ، فالأولى تدفعه للجود والثانية تدفعه للبخل ، وهو يغلب الأولى على الثانية فيأخذ جانب نفس الجود ويطيعها ، ويقف ضد نفس البخل ويعصيها .. ففى هذا التصوير العميق الدقيق الذى صور به الشاعر العربى ذاته نجد مكونات النفس الثلاثة التى قال بها فرويد واضحة جلية .. فنفس البخل تقابل « الهى » لدى فرويد أى تلك التى تدفع الإنسان لإرضاء شهواته وأغلبها ذميم مكروه ، ونفس الجود تقابل « الأنا الأعلى » التى تحض على مكارم الأخلاق وتدفع إليها حتى لو كان فى ذلك خسارة أو أضرار تعود على الفرد (كتبديد ماله وممتلكاته فى حالة الكرم) .. أما ذاته التى تطيع نفس الجود فتمثل « الأنا » التى عليها أن تحسم الصراع بين النفسين ، والتى تتكفل بإدارة الشخصية كلها وتنظيم سلوكها والتحكم فى نشاطها وتحقيق إمكانياتها مراعية الظروف المعاشة والواقع الحى الذى يحيط بها عندما تشرع فى تنفيذ مطالب الهى أو الأنا الأعلى .. ولاينبغى أن تأخذنا الدهشة لاكتشاف العرب منذ ماقبل الإسلام حقيقة انقسام النفس والصراع بين أجزائها قبل فرويد .. فالحقيقة العلمية تكتشف أكثر من مرة وفى أكثر من عصر ، وإن نسبت إلى فرد بعينه فى زمن بعينه ، كما حدث بالنسبة لفرويد حيث امتاز بنظرة أعمق وأشمل للنفس البشرية ، وبقدرة أعلى على تنظيم المعلومات فى صورة نظرية عامة متكاملة ، وعمها بكثير من الوقائع والمشاهدات والأمثلة .. وفوق كل هذا امتاز بجرأة أكبر على إذاعة الحقيقة والدفاع الشجاع عنها دون خشية الاتهامات والتجريح ، مما تسبب فى ذيوع نظريته وانتشارها ، واستمراريتها ، وعمق تأثيرها فى الفكر البشرى على نحو ماسبق أن أشرنا .

نظرية كارل يونج Jung (نظرية علم النفس التحليلى Analytical Psychology) : :

جمع فرويد حوله عددا غير قليل من الزملاء والتلاميذ الذين انبهروا بأفكاره ومكتشفاته ونظريته فى التحليل النفسى ، وخاصة ماتعلق منها باللاشعور ، وبدوره فى تكوين الأمراض النفسية ، وبأساليب التوافق وحيل الدفاع ، وبفكرة الصراع النفسى ، وبالدوافع النفسية الكامنة وراء سلوك الإنسان حتى مايتعلق منها بهفواته وبأحلامه وبظاهرة النمو النفسى ومراحله .... وما إلى ذلك من مكتشفات وآراء هزت ميدان علم النفس وتطبيقاته ، وميدان العلاج النفسى وأساليبه .

وعادة ماينشق على زملاء الرأى العلمى الواحد بعضهم لخلاف فى الرأى حول

مسألة حيوية فى علمهم ، فقد يرى بعضهم إسرافا من الجماعة فى التركيز على فكرة معينة لايرتضيها ، أو إهمالا من جانبها لفكرة يراها شديدة الأهمية ، ولايوافقه عليها كثير من الزملاء .... وهكذا كان كارل يونج (١٨٧٥ ـ ١٩٦١) أحد تلامذة فرويد وزملائه البارزين فى حركة التحليل النفسى ، إلا أنه اختلف مع فرويد وانشق عنه عام ١٩١٢ مكونا مدرسة خاصة فى التحليل النفسى سماها بعلم النفس التحليلى تمييزا لها عن التحليل النفسى .

ولقد اتفق يونج فى مدرسته مع فرويد فى كثير من آراء مدرسة التحليل النفسى كاللاشعور والصراع النفسى والوظيفة النفسية للسلوك الإنسانى ، إلا أنه اختلف معه فى بعض التفاصيل كاللاشعور الجمعى الذى نال كثيرا من التركيز عند يونج ، وكالاتجاهات الانطوائية والانبساطية وكفكرة القناع أو الشخصية العامة ، وكتحديده للوظائف النفسية الأربعة والتى هى : التفكير والوجدان والإحساس والحدس .. ويعتبر يونج أقرب المنشقين إلى التحليل النفسى الفرويدى ، فهو لم يبعد عنه كثيرا ، ولم يكن خلافه معه جذريا ، وإن كانت الأيام تعمق بعض الخلافات وتزيدها تأصيلا .. وفرويد لم ينكر معظم ماقال به يونج ، وإنما كان ينظر إليه نظرة مجملة فى مجرى الحياة النفسية للإنسان وتكوين شخصيته .

فيونج يرى أن هناك لاشعورا جميعا Collective Unconscious يوجد لدينا جمعيا ورثناه عن البشرية التى انتهى إلينا تطورها الحالى .. وإن اللاشعور الجمعى هو الذى يوحد بين التكوين النفسى لنا كبشر ، حيث يوجد بداخل كل منا قدر مامن هذا اللاشعور الجمعى ، وإن كان هذا القدر يختلف من فرد لآخر .. فكان اللاشعور الجمعى هو المخلفات النفسية التى ورثناها عن أسلافنا من البشر ، وهو الذى يحمل الحكمة والمعرفة والخبرة التى أتتنا عن الجدود ، كالتماس ثدى الأم للرضاعة عند الولادة والخوف من الظلام والمجهول واستخدام الرموز فى الأحلام التى نراها فى نومنا ، وذلك كنتيجة خبرات متراكمة مر بها الجنس البشرى وحفرت بشكل فطرى فى تكويننا النفسى .. واللاشعور الجمعى فى نفس كل منا يقابل لاشعوره الفردى الخاص Personal Unconscious .. وهو الذى يتكون من ترسيبات وردود فعل الخبرات الخاصة التى يمر بها كل منا ، وهى بطبيعتها تختلف من فرد لآخر .. ويرى يونج أن اللاشعود الجمعى أقوى تأثيرا فى نفس الفرد وأخطر أثرا فى تكوين شخصيته من لاشعوره الفردى أو الخاص ، بل هو الذى يلون هذا اللاشعور الفردى وينضح عليه .

كما يرى يونج أن هناك اتجاهين تأخذهما النفس البشرية فى موقفها وتعاملها مع غيرها هما:الاتجاه الانبساطى Extraversion والانطوائى Introversion ففى الاتجاه الانبساطى يميل الفرد إلى أن يتعامل مع غيره وتكون له علاقات معه ، أما الاتجاه الانطوائى ففيه يميل الفرد إلى الانطواء على نفسه والانعزال عن غيره .. ويوجد الاتجاهان معا فى الشخصية الواحدة ، إلا أن أحدهما يكون أكثر ظهورا وسيادة نتيجة التكوين الخاص للاشعور الفردى للشخص .

أما فكرة القناع Persona فقد استعارها يونج من مصطلحات المسرح ، وقصد

بها فى نظريته أن لكل منا قناعا شخصيا يبدو به أمام الناس ، وغالبا ما يكون مغايرا لحقيقته التى يعرفها هو عن نفسه .. فكأنه يظهر بشخصية معينة ذات صفات وتصرفات وأخلاق معينة أمام الناس ، اتفاقا مع تقاليد المجتمع ، وتمشيا مع مايرتضيه الناس ، واستجابة لمقتضيات الواقع ، وهذا خلاف شخصية الفرد الخاصة والتى يحاول إخفاءها عن الآخرين خلف الواجهة الاجتماعية التى يظهر بها .. فكأن الفرد أمام الأخرين يقوم بتمثيل شخصيـة ليست هى حقيقته كما يقوم الممثل بتمثيل شخصيـة فى رواية مسرحية.ومن هنا استعار يونج من المسرح فكرة القناع .

ومن الجدير بالذكر أن يونج كان من أقرب علماء النفس والمحللين النفسيين اتجاها ونزعة نحو الفكر الغيبى فى حديثه بالذات عن اللاشعور الجمعى ، وفى أفكاره التى حاول أن يضفى فيها على التحليل النفسى صبغة أخلاقية .. بل إن انشقاقه عن فرويد كان أصلا بسبب قناعة تكونت لدى يونج عن أن فرويد فى بعض ماذهب إليه قد تجاهل الاعتبارات الدينية والقيم الخلقية ، مما أثار عليه حفيظه بعض رجال الدين ، خاصة لإبرازه دور دافع الحب فى النفس البشرية ، وتأثيره فى سلوك الناس السوى والمرضى على السواء .. ويبلغ يونج فى سنوات عمره الأخيرة درجة عالية من النزعة الغيبية والأصالة فى نفس الوقت عندما يقدم مع بولى Pauli فى عام ١٩٥٥ مبدأ يقابل مبدأ العلية السببية يسميانه مبدأ التزامن Synchronism يفسران به اتفاق حدوث أشياء مرتبطة فى نفس الوقت ، كأن يرد على بالك شخص ما ثم إذا به يحضر لزيارتك ، أو تحتاج فى لحظة ما إلى مساعدة فرد بعينه فإذا به يحضر إليك فى التو ، أو تحلم بشىء فى نومك فإذا به يتحقق عندما تستيقظ ... مع مراعاة أن هذا التوافق يبدو كأنه صدفة لاتعلله مسببات تربط بين هذه الأمور الاتفاقية .. وكأن مجرد التفكير فى الشىء ينتج عنه حدوثه الفعلى فى عالم الواقع ، أى أن الفكر يؤدى إلى التجسيد .. ولقد فسر يونج وزميله بهذا المبدأ بعض مايشاع عن توارد الخواطر وعن تحقق رؤى الأحلام .. ولعل فى تاريخ حياة يونج مايفسر ولعه بالأمور الغيبية والميتافيزيقية ، فلقد كان والده من رجال الدين المسيحى ويعمل قسيسا ، ولقد رأى يونج حلما جعله يتحول إلى دراسة العلوم الطبيعية فاستجاب للحلم مباشرة ، وانتهى به ذلك إلى دراسة الطب الذى برز فيه وقاده إلى أن يصبح من أعلام التحليل النفسى البارزين .

نظرية ألفريد أدلر Adler (نظرية علم النفس الفردى Individual Psychology) :

كان أدلر (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧) تلميذا هو الآخر وزميلا فى حركة التحليل النفسى التى أنشأها وقادها فرويد .. ومثلما فعل يونج اختلف أدلر أيضا مع فرويد وانشق عنه فى عام ١٩١١ مكونا مع بعض زملائه « جماعة البحث الحر فى التحليل النفسى » ثم غير اسمها فى العام التالى لكى تصبح جماعة « علم النفس الفردى » .. وقد اكتسبت بعد ذلك أنصارا كثيرين فى مدرستها .

ويعد أدلر أكثر بعدا عن آراء فرويد من زميلهما يونج .. ويأخذ أدلر على نظرية

فرويد أنها تركز على علية السلوك والبحث فى مسبباته في حين أن نظريته تركز على غائية السلوك .. فإذا كان فرويد فى بحثه الرئيسى يحاول أن يتتبع المسببات والعلل التى أدت إلى أن يتم هذا السلوك بهذه الكيفية ، وبالتالى معنى هذا السلوك بالنسبة للشخصية التى قامت به أو تقوم به ، فإن أدلر من الجانب الآخر لايعير هذا اهتماما كبيرا ، إنما يتجه مباشرة نحو دراسة الهدف من هذا السلوك .

وتركز نظرية أدلر على أن إرادة القوة وإرادة التفوق وإرادة بلوغ الكمال وقهر الإحساس بالدونية أو بالنقص أو بالقصور ، هى الدافع الرئيسى لدى الإنسان .. وكأن الإنسان فى سعيه الدءوب إنما يهدف إلى شىء واحد هو أن يكون محققا لذاته فى مجتمعه كأفضل مايكون التحقيق .. والتحقيق الأفضل هذا للذات سوف يكون معياره مختلفا بين الأفراد ، فبينما يراه البعض فى القوة والغنى والأمور الأنانية العنيفة كالمرضى النفسيين يراه آخرون فى الأهداف النبيلة ذات الطابع الاجتماعى ، والتى تؤدى إلى تقوية المجتمع ومساعدته على النهوض وتحقيق القوة كما هو الحال لدى أصحاء النفوس ... ومن هنا تتبدى نزعة أدلر الاجتماعية الواضحة .

ولذا فإن نظرية أدلر نحو الشخصية تتركز فى أن كلا منا يبدأ منذ ولادته مراحل نموه الهادفة تصاعديا إلى بلوغ الكمال أو الاقتراب منه .. فهو يتجه دائما إلى أعلى متخطيا مراحل الضعف محققا القوة .. فمثلا الطفل الصغير تدفعه رغبة جامحة نحو تحقيق الانتصار والقوة وإثبات الذات .. وهذا ما يساعده فى نموه .. كما أن لكل منا أسلوبه الخاص ورؤاه الذاتية فى تحقيق قوته أو إثبات وجوده ، فهذا يحققها عن طريق التفوق العلمى ، وهذا يحققها عن طريق السيطرة على الآخرين ، وهذا يحققها عن طريق الغنى ، وهذا يحققها عن طريق الشهرة ...

ويعطى أدلر لشعور الفرد بالقصور الدور الأكبر فى سعيه نحو القوة والسيطرة لتعويض هذا القصور ورد الاعتبار إلى الذات .

ومن أشهر الأمثلة للتعويض عن القصور أو النقص ديمو ستينوس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) الذى يعتبر أشهر خطباء اليونان قاطبة ، والذى كان نطقه ضعيفا وغير سليم ، ويقال : إنه كان يضع الحصى فى فمه وهو يتكلم حتى تخرج كلماته صحيحة النطق .

وهكذا ركز أدلر وأبرز أهمية التعويض الزائد على نحو ماعرضناه كحيلة (أو وسيلة) سادسة من حيل التوافق التى تلجأ إليها الشخصية لعلاج موقف الإحباط الذى تكون فيه .. فلقد دارت سيكلوجية أدلر على محور التعويض الزائد كحيلة تلجأ إليها الشخصية فى مراحل نموها المختلفة لقهر « عقدة النقص Inferionity complex التى تعيبها من جراء إحساسها بالضعف والعجز .. وبهذا تعيد الشخصية ثقتها بنفسها فى امتلاك القوة والسيطرة والتفوق ، فتندفع فى نشاط وتهيىء لنفسها من الظروف مايمكنها من ذلك ، على نحو مافعل ديموستينوس .

وهناك حكمة تقول : إن النظريات صادقة فيما أثبتت كاذبة فيما نفت .. ومن إيماننا بهذه المقولة فنحن لانرى تناقضا بين ماعرضنا من نظريات فى النفس البشرية .. فكل منها ركزت على جانب أو عدة جوانب معينة وأهملت غيرها .. ولقد أتاح لها التركيز اكتشاف حقائق خاصة بكل منها ، وإن بدت متعارضة إلا أنها فى الحقيقة

متكاملة ، بحيث تسد كل منها النقص الذى يعيب الأخرى .. فمثلا إذا كانت نظرية فرويد قد تجاهلت الأحكام التقييمية الاجتماعية فقد كان ذلك سعيا من فرويد فى اكتشاف الحقيقة وإبرازها مجردة موضوعية دون أن تلويها القيم والمواصفات الاجتماعية المختلفة ، فتزيفها ، أو تقمعها ، أو تكبتها ، أو تحرفها .. فكان جريئا فى قول مايراه حقا دون خشية أن يتعارض مع قيم المجتمع ، أو أن يساء فهمه ، أو يجرح نواياه .. ومن هنا مضى فى إعلان مكتشفاته ، بانيا صرح التحليل النفسى الضخم غير هياب أو متردد .. ثم جاء يونج فأعطى للتحليل النفسى بعدا روحيا فخفف من جفاف الموضوعية فى فرويد ، وجاء معه أدلر فأمد التحليل النفسى بمفهوم الغائية التى تنطبق على سلوك الفرد متخذا القوة والسيطرة غايته ، كما تنطبق على نشاط المجتمع ككل متخذا مصالحه العليا فى القوة والنفوذ والبناء والتقدم وقهر المشكلات الاجتماعية المختلفة .. ولاتتعارض الغائية التى ركز عليها أدلر مع السببية التى ركز عليها فرويد .. فما سببيه السلوك أو وظيفته إلا تحقيق الغاية التى يسعى الفرد إليها ، حتى وإن أخطأ سبيله السوى ، فاضطربت لذلك نفسه ، وأصيبت بما تسمى الاضطرابات النفسية .

ختام فى خلاصة

عرضنا بشكل مجمل فيما سبق تشريحا للنفسية البشرية ، لنرى مما تتكون ، ووظيفة كل مكون من مكوناتها ، وكيفية عمله المتكامل مع غيره .. ثم تحدثنا ـ حسب ماسمح به المجال ـ عن بعض النظريات .. أو لنقل النظرات عن الشخصية مؤثرين أشهرها وأهمها أثرا .. وفى نهاية حديثنا ينبغى أن نوضح حقيقة هامة ، تلك أن الشخصية وحدة جسمية ونفسية متكاملة لها تاريخ ضارب فى عمق الزمن منذ بدء تكوينها جنينا فى بطن الأم .. وأنها فى النهاية ، بل وفى أية مرحلة من مراحل عمرهـا ، نتاج للتفاعل بين مكونات ومؤثرات وراثية وبين مكونات ومؤثرات بيئية .. قد يطغى أثر مؤثر وراثى على أثر مؤثر بيئى فى بلورة خاصية جسمية أو نفسية معينة أو يحدث العكس فيطغى أثر مؤثر بيئى على أثر مؤثر وراثى فى بلورة خاصية جسمية أو نفسية أخرى ، لكنه مع ذلك يندر أن ينفيه أو يلغيه ، إنه فقط يتفاعل معه .. فمن ورث جهازا عصبيا قويا لايقع فريسة لمرض نفسى إلا إذا كانت الظروف البيئية التى مربها بالغة من السوء وعنف الصدمات حدا بعيدا ، فى حين أن من ورث جهازا عصبيا هشا ضعيفا يسهل أن تؤثر عليه الصدمات ويقع فريسة الاضطرابات ، حتى لو كانت هذه الصدمات ضعيفة .

لكن ماذا يحدث إن اختل الاتزان داخل هذه الوحدة الجسمية النفسية ؟! أو بمعنى آخر اضطراب تكامل الشخصية لدى إنسان ما ؟! عند ذاك يحدث مانسميه بالاضطراب النفسى أو بالمرض النفسى أو بالخلل النفسى .. وعند ذاك أيضا لامناص من أن نلتمس العلاج النفسى لدى المتخصصين سواء كانوا أطباء نفسيين Psychiatrists أم كانوا محللين نفسيين Psychoanalysts أم كانوا معالجين نفسيين Psychotherapists لاينتمون إلى الفئة الأولى أو إلى الفئة الثانية ..

وكل فئة من هذه الفئات متخصصة فى العلاج النفسى .. بل ونذهب لأكثر من هذا فنقول إن لكل متخصص من هذه الفئات أنواعا معينة من الأمراض أو الاضرابات أو الانحرافات النفسية يحقق فيها نجاحا كبيرا فى العلاج حسب طبيعة الشخصية .. ونوعية الاضطرابات أو الاختلال .. تماما كما هو الحال بالنسبة لأطباء البدن .. وقد تتنوع أساليب العلاج من متخصص إلى آخر ، بل ومن مريض لآخر ، لكن تظل أبدا أهداف العلاج النفسى واحدة ، إنها إعادة المريض إلى حالة الاتزان النفسى المنشود ، وعلاج الخلل الذى أصاب تكامل شخصيته ، وتحقيق الشفاء النفسى الذى يؤدى إلى أن يحقق الفرد ذاته ، وأن يتوافق مع نفسه ، ومع مجتمعه ، ومع مختلف عناصر بيئته توافقا ناجحا بناء .